مدونة ابو عبدو

قصص

من يحرث البحر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

إلياس فركوح

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

من يحرث البحر

من يحرث البحر؟

ق
الي الياس فركوح
من يحرث البحر؟ / الياس فركوح. ـ عمّان: دار منارات
للنشر، ١٩٨٦
١٣٦ ص.
٠١ العنوان
تمت فهرسة هذا الكتاب بمعرفة جمعية المكتبات الأردنية وبموافقتها رقم
(ج.م.أ) ١٩٨٦/٢/٨
رقم الاجازة المتسلسل: ١٩٨٦/٢/٩٤
رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
(١٩٨٦/٢/٩٧)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٨٦

دار منارات للنشر
ص.ب: ٩٢٥٠٦٢
هاتف: ٦٦١٣٢٨
عمّان . الأردن

تصميم الغلاف: «منارات»
رسوم الداخل والغلاف: نبيل أليف
الخطوط: محمود طه

المحتـــوى

اهداء	٧
من يحرث البحر؟	١١
نوافذ على بحر الغريب	٢٢
نقطة عبور	٣١
محطات الرجل والمرأة	٤١
الجدار الأخير	٥٧
الماء . . وعز العرب منصور	٦٧
تشكيل	٧٣
آخر النهار	٨٣
الخلاص	٩١
علاقة	١٠١
قبل أن يأتي الذباب	١٠٩
الدمى والملائكة	١١٧
كلب حامد	
جنة مصباح	١٢٥

إلى الصغيرين: «غيث» و«يزن»؛
عسى أن يلوّنا «بحراً» لا تتكسرُ المجاذيف فيه.
بحراً لا يبتلعُ منهما العافية . . والأحلام.

لكن قُلْ الكلمة فحسب

تي . إس . إليوت

«أربعاء الرماد»

من يحرث البحر؟

ليسَ من خيطٍ يفصل العتمة عن الانقشاع. يتقدم الفجرُ خفياً، خفيفاً، خالياً من أي صوت؛ مثلما الأشياء الرابضة في مطارحها. إنارات واهنة في شرفات البنايات الكامدة.

تقترب من الممرات المرصوفة بالحجر الخشن. حافية. تمشي على رؤوس أصابعها. على الأحجار المحبحبة، الخشنة. بقايا صباغ أحمر على الأظافر العارية.

وكالفجر؛ خفيفة، تتخفّىٰ ـ بلا تقصد ـ بين نباتات الأرض المشرفة على الشاطيء. صوتُ البحر الصباحي كالهمس. تلامسُ ذرّات الرمل الذي أتت به الريح. تحسّهُ في باطن قدميها العاريتين. ما من كائنٍ صحا، اللحظة، ليشهدَ هبوطها نحو الشاطيء.

انه الصوت. الصوت ذاته. سمعتهُ يجيء من الزاوية القريبة من باب الحجرة. كانت نائمة. أيقظها. جاء يطرق أبواب النوم ويشرعها. ظلّت نائمة. وقف في الباب يُطِلُّ على عالمها الصغير الصغير. ينقّبُ بعينيه، هادئاً، بدون إزعاج، في أشيائها المرتّبة. كانت مرتبة قبل أن يجيء. قال

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

في نفسه: رتيبة هذه الأشياء!. هو لم يقلْ. كلا. قررَ انها رتيبة، ومكثَ يتفكر.

كانت نائمة في حجرتها. طرقَ أبواب النوم، وأيقظها.

قررَ: عليّ ان أدمّرَ هذه الرتابة. عليّ ان أبعثرها.

وضربَ بيده فاهتز الهواء.

استيقظت على صوته يجيء من الزاوية القريبة من الباب. أتى. لقد أتى إليها، فقامت من نومها تستقبله بعينين مفتوحتين على شحوب الأشياء. لم تره. لكنها سمعت صوته رائقاً، قوياً، واثقاً، يقول: لماذا الرتابة؟.. دفء الفراش خادعٌ!

واستقامَ ظهرها بكل الهدوء والأناة. كالحلم. يحدثُ ولا يحدث. كالكذب. يصير وليس بحقيقة.

لطالما تمنّتهُ ان يكون. تراه على غير هيئته المناسبة في كل الأماكن. تلك التي ترتادها كل يوم. تلمحهُ يمرّ كالخلف أمامها، على زجاج واجهة المحل الكبير؛ يخترق جسد العارضة الجامدة، يدخل في ثوبها كالطيف، ويعبر دون أن يبادلها كلمة. أو تحية المساء. أهي كراهيته لرتابة الكلمات المكرورة، التي امتصَّتْ الشفاه طعم المعاني منها؟ ربما. تفكرتْ، وطفحتْ في روحها رغبة لأن تبوح له بموافقتها. هي لا تمانع. أبداً. حقاً لا تمانع في كسر الرتابة المحيطة بها. الرتابة المُحدقة بها. المحدِّقة والواغلة في أدق أشياء حياتها.

أجل. ستُفشي له سرّ كآبتها. ستقول له: أعرف. أعرف. ثم تحرّك السُكَّر في فنجان قهوتها الكبير. تتركُ لأصابعها المرتجفة ان تُسند الملعقة الصغيرة الى حافة صحن الفنجان الصيني الرقيق، وتصمتُ نافخةً الهواء

من صدرها. لا تتطلع إليه. تُبقي عينيها على دائرة البياض المتجمِّع كالزَبَد على وجه القهوة. تتفرس في الدائرة التي سكنتْ وتراهُ فيها. لا ترفع عينيها الى وجهه، لكنها تراه في الدائرة. انها تحفظ صورته. تستطيع أن ترسمه وهي مغمضة العينين. أجل. بمقدورها تكوين ملامحه بكل الدقة وبكل المهارة التي يمتلكها فنّان حاذق.

لن تدعهُ يفتح فمه ليتكلم. ستهزّ رأسها الصغير مرتين، وسترتجف خصلة شعرها النازلة عند صدغها مرتين. ستنقرُ بأظافرها المُعتنىٰ بها على خشب الطاولة نقرات متتابعة. ستلحظ تمشيحات خرقة التنظيف التي مرّت على بقـايا الزبون الأخير. ستوقف النقرات فجأة، وفجأة سوف ترفع إليه عينيها لتقول: إنها بلادة. أليس كذلك؟.. حياتي.

لكنها، حين تفعل هذا، لن يكون هو جليسها على الطاولة.

لا أحد.

مقعدٌ شاغر وغيمة أحاديث تتنقل فوق رؤوس الروّاد والنادل.

لا بأس: ستقول. ذهب إذ لم يصبر عليّ. ربما أخّرته عن موعد مهم لحياته. ربما تذكّر امراً نسيه ولا بدّ له من إنجازه.

أجل. لا بدّ من إنجازه. لا بدّ من إنجازه.

تتـركُ فنجـان قهـوتهـا يبـرد، وتـرحـل بعينيهـا إلى ما وراء الرؤوس، والزجاج، والشارع. ترحل الى مقاهٍ أكثر تواضعاً. أكثر نشاطاً. أكثر ضجيجاً. أكثر قرباً من البحر.

ها هي تسمعه يهمس بصوته الأزلي. يطرقُ أبواب نومها ويشرعها. تحدّق في المدى المُحاصر في حجرتها. تمدُّ أصابعها الى جوار الوسادة، وتضغط على مكبس الإضاءة. ينفضح المكان ويكشفُ أشياءه.

الستـائـر الثقيلة. المرآة المؤطرة بخشب مُعتَّق ومُطعَّم بنجومٍ من صَدف. نسخة مطبوعة لنساء هاييتي لغوغان. تتريث عندها. تسحبُ غطاء السرير حتى ذقنها. تمرر نظراتها المتيقظة على الأجساد السمراء. على شعرهن الحالك. على نهودهن الملساء التي سمّرتها الشمس. لا بحر. ليس من بحر يستدعي عُري الأجساد. النظرات المتواطئة على العري. تنظر أكثر. تتيقظ أكثر. تنسحبُ سريعاً الى المرآة فتكون فيها. من حولها خشبٌ مسَّودٌ عتيق مُضاءٌ بالصَدف. نجومٌ ومضلعاتٌ هندسية شرقية، وذقنٌ تستند الى ركبتين تحت الغطاء.

يجيء الصـوت. من مكان قريب يجيء. ربما الزاوية القريبة من الباب. واثقاً، هادئاً، أزلياً، ويتقدم. يعبر المقعد طويل الظهر. يحاذي نساء هاييتي، والمرآة، وصف الشموع الوردية المرتبة فوق طاولة واطئة عند النـافذة. يدنو منها. يدوس على السجادة الصغيرة طويلة النسيج. يكاد يصل السرير. تُغلقُ عينيها وتكتم تنفسها كأنها تنتظر أمراً لا راد له. تنتظر. تنتظر. يتلاشىٰ، في أذنيها، الصوتُ، ويطلع البحر من خلف الستائر الثقيلة.

تفتح عينيها فترىٰ الريح تهزّ الستائر!

من فتح النوافذ؟!

تقول: لا بدّ من الإنجاز، إذن.

باتت خطواتها الخفيفة تثقل. إختلّ توازن جسدها النشط، المتسق ومشيتهـا الأشبه بالهرولة. أخذ ظهرها ينحني الى الأمام. قليلاً. قليلاً. إجهـادٌ يولـدُ وينغـلُ في عظام الساقين المتقدمتين باتجاه الشاطيء. نحو البحـر أكثـر. هبّت ريحٌ رخية على جسدها. عبرته. واتجهتْ الى حيث أطـاريف الشوارع، والأصوات المتوالدة.

صوتُ البحـر يتعـاظم. ليس ثمـة وضوح كامل. رمادٌ يتساقط في العينين. أشبـه بنثـارٍ سحريّ أفرغته غيمة. شقٌّ في السماء. شقٌّ صغير لشروقٍ ضعيف. يتفضض النثار ويشعّ. ينتشر على طول الشاطيء. يزحف من جهة البحر، من أفق البحر، يُلألي‌ء الماء ويتقدم، دخاناً خفيفاً، يخترق الجسد المتواثب ويمضي نحو المدينة.

يُولدُ الصوتُ إيّاه. الصوت الطارق بوابات نومها. يهتف بها منادياً من صوب البحـر. لا وجه له، لكنه الصوت اليومي الذي تفيق عليه. الذي تشـربـه مع قهـوتها الصباحية. الذي بمقدورها ان تكوّن له وجهاً محدداً بجميع تفاصيله دون أن تراه قط. ليس مهماً ان ينتظر طويلاً على طاولتها في المقهى الفخم. كما ليس من فارقٍ، عندها، إن لم يتريث ليحدّثها بشيء صغير ولو تحية المساء. لكنه موجود. رأته يعبر زجاج واجهة المحل ويخـترق جسـد العارضة الجامدة. أجل. يخترقها ويدخل تحت ثوبها. ويمضي. ودّتْ لو تكـون هي العارضة. أن يخترقها هي، كالطيف، بلا مساسٍ حقيقيّ، وله بعد هذا أن يمضي. ستكتفي باختزانه فيها طيفاً تراه وحدها. يعيش فيها وحدها. الوحيدة التي تعرفه وتعرف لذة الشيء الذي لا يُمسَك!

يهتفُ الصوتُ بها داعياً الى الإقتراب. تقترب. تدخلُ في البحر.

انتعشتْ وطارت خصلةٌ من شعرها. هذا حقيقيّ! لكن الصوت لم يتراجع.

الحـافـلات في بداية دورانهـا اليومي. عليّ أن أُعجّلْ!: قالت. وحثّتْ خطاها الصعبة في الرمل والماء. صار لذرّات الرمل في باطن قدميها ملمسٌ ناعم. صار للملمس النـاعم تأثير مهيّج كالدغدغة. تطايرتْ في

الماء أشياء في داخلها رفّتْ وتاقت لكسر حدود الجسد. يصلُ الماءُ حتى الـركبتين. يُمسـكُ بأطـراف ثوبها المهفهف على جسدها. ينتفخ الثوبُ الشفيف. ينفخُ الهواءُ فيه. تُعَبأ بالريح وتخالُ نفسها تطير. شعرها يطير. ليس طويلاً، لكنه يخفقُ ويخدشُ وجهها. لا تبالي. تتقدم. تودّ لو تقفز. تعجـز. يجذبها الماءُ والرملُ الى قدميها الثقيلتين، الراسختين. تهتاج. تعتكر الأشياء في عينيها وتستسلم لما يشبه الدوار. يتساقط المزيد من نثار السماء الفضي. يرتقي الماءُ ويرتقي غامراً فخذيها، أسفل بطنها، يغرقُ ثغـرةَ السـرّة ويملؤهـا، يرتفـع الى أعلى؛ يختلّ توازن الجسد فتنسحب الذراعان من الماء ليكونا مجذافين يطفوان فوق سطح البحر. يُبحرُ الجسدُ في البحـر أكثر. يغمر الماءُ خصرها ويتسلق، موّاجاً ثقيلاً هادئاً، ظهرها ليحيط بثـدييهـا المبللين تحت الثـوب الـلاصق بهـا. تقشعـرُّ الحلمتان وتتصلبـان. يباغتها ضيقٌ من هذا الإلتصاق للثوبِ عليها. تخاله يخنقها كشيء زائد يدبقُ بالروح. تنحني نحو قدميها.. يختلّ توازن الجسد.. تُباعدُ ما بين ساقيها ليستقيم جذعها ويستردّ توازنه.. تهبط ثانية برأسها، وتمسكُ بأطراف الثوب.

كل خطوة تكـون بلا صوت. بأناة. يكون جذعها المنحني باتجاه عرض البحـر. ترى الأشياء تحتهـا. تحدّق وتتريّث. عند أصابع قدميها الغائصتين في الرمل صفاءٌ لم تره أبداً. إنها المرة الأولى. تلاشىٰ الإعتكار تماماً. هدأتْ على وضعها ورأت. كثبانٌ وهضابٌ متناسقة كأجلىٰ ما يكون التنـاسق. صفـوفٌ لا تنتهي من الكثبان والهضاب. كلها متشابهة. كلها واحدة في شكلها وتموّجها وتوازيها في صفوف بلا نهاية. حقلٌ محروثٌ لا حدّ له من هذه الهضـاب والكثبـان. لا يفصل بين الصفوف سوى أثلام

تحددها لتكون أراضي حرثها الموجُ في هياجهِ الليلي .

كانت تقبض بأصابعها على طرف الثوب تحت الماء .

تفكـرت ، مدهـوشة ، مبهورة ، مشوشة الذهن . لهثتْ تجري وراء صور دهمتها وهي على هذا الوضع . رتابة الترتيب والنظام في حجرتها . كلُّ شيءٍ في مكانه وكأنه وُجد ليكون هناك ويستقر . ثابتٌ بقانونٍ سنّهُ الخلق . سيرها اليومي في الشوارع ذاتها . الوجوه ذاتها . العمل المتناسخ الأبله مثل تحية الصبـاح والمسـاء وقبل النوم . الوجبات والواجبات : لا أحد فرضها عليّ ! لمَ الإلتزام بها؟ ! . قالت . وقالت : قلتُ له ذلك . قلته له لكنه ما كان حاضراً . إعترفتُ له بأنّ هذه بلادة . غادرني قبل أن أقولها ، وترك لي مقعداً فارغاً وأصواتاً خاوية . يطرقُ عليّ سواترَ نومي ليوقظني . أعرف هذا . وأعرف انه قرّر لي أن أبعثر هذه الرتابة وأن أخرج من دفء الفراش الخادع . . .

ورغم برودة الماء ، إلّا أنها زادتْ من قبضها على أطراف الثوب . كانت قد قرّرت هي الأُخرى . رفعت ثوبها بهدوء . عيناها على حقل البحر تحتها ، ثم نضته عنها ، مرةً واحدة ، وذراعاها منطلقتان باتجاه السماء .

تطاير الثوب ثقيلاً وانطرح فوق وجه البحر .

نَزَّتْ الغيوم كثيراً من نثارها الفضيّ . وازداد الشقُّ في السماء إتساعاً . صار للجسد هيئة أُخرى . تقطَّر الماءُ على أطرافه حبوباً مُشعّة . دخلتْ هي في البحر أكثر . طفا شعرها القصير . استلقتْ على ظهرها . حملها البحر .

عندما طفقت تسبحُ عائدة صوب الشاطيء ، كان الصوتُ قد غاب .

رأتْ في البعيد شكل رجل يقف وكأنه يرصدها . لم تتبيّن ملامحه . تنبّهتْ إلى أنها خرجت من ثوبها . وانها باتت خفيفة . وان البحر يحملها .

فزادتْ من ضربات ذراعيها وركلات ساقيها للماء. إنزلقتْ بنعومة وسلاسة. وطارت أشياءٌ في داخلها عابرةً حدود الجسد، لتنطرحَ بنشوة على رمل الشاطيء.

عمّان

تشرين ثاني ١٩٨٥

نوافذ على بحر الغريب

يقلّبُ الرجل ما بين يديه. يحتارُ أيّها يختار. جميعها جميلة؛ ألوانها سماء، وخطوطها عُمرٌ يحفرُ أخاديده على الأرض، وفي روحهِ اللهفةِ إلى شيءٍ لم يدركه بعد. لكنه يمضي في التنقّل بينها بقلقٍ يرعشُ أصابعه الكبيرة. يرتعشُ قلبهُ، فتطرفُ عيناهُ بنزقٍ عصبيّ. لا تدمعان. فيحترقُ ركامٌ في تجويف الصدر ولا يصعدُ دُخان!

ثمة السجائر في المنفضة.

ثمة السجائر في علبتِه المُشرعة على ضوءٍ شحيح.

يحدثُ إختلاطٌ في المكان. يحدثُ فيه. إلّا انه غائبٌ عن هذا؛ حاضرٌ في الصور المفتوحة على الألوان. هي النوافذ الخشبية العتيقة. النوافذ المشققة، الخارجة من خشونة الحائط الأبيض تُشهرُ إخضرارها.

في الرمل، على الأرض، رمادٌ هابطٌ من غيمةٍ معلّقة.

في السماءِ بشارةٌ تأخرتْ نذرُها.

والهواء ملٌّ إنتظار البللِ.. فعصفَ.

على الرجل ان يختارَ إحداها. يقول: (هذه هي!.. نعم. هي

التي أُريد.). ويسطّرُ على وجهها الخالي كلماتٍ تقولُ بعضاً من الدخان الذي لم يصعد.

ماذا يقول؟..

تحيّر. إلاّ انـه عاندَ ضعف الذاكرة، أو عصيان الكلمات الأولى، واستحضرَ خطوطاً من كلمات الشاعر. ماذا يقول العرّاف؟.. ماذا يقول المُنجّم؟.. كلماته هي التي ظلّتْ. يقولُ الشاعرُ* عنها:

«ظلّتْ كلماتهُ، بعده

أجملَ من العالم

لا يجرؤ ان ينظرَ اليها أحد».

صارحَ نفسـه: (هي كلماتُ المنجّم حقاً!). ثم أتبعَ: (وتصحبها موسيقى لا بد!). وهـرشَ شعـرَ الغيوم في رأسـهِ. يتـذكّر. تسقطُ شعرةٌ حلزونيةٌ وتعلقُ بزاويةِ الصورة. (أجل. هناكَ موسيقىٰ لا بد!)، فاشتعلتْ أطرافهُ تزامنُ إيقاعاً يسمعهُ دون غيرهِ من الأصوات. تلك الموسيقىٰ الطالعة من خشب النوافذ الخضراء. من شقوقها الطولية. من خلف الستائرِ التي أكلتْ الشمسُ زهرةَ اللونِ فيها. من غلاظة السكون في المكان الشحيح الضوء. ذاكَ هو المكان.

..والبحـــرُ؟

ثمة البحرُ كما الرجل حاضرٌ ملءَ المشهد. لا تكذّبه حقيقة. أبداً. لا يُدحض. يرتدي ثوبَ الحقائقِ ويخطرُ زاهياً بشعشعة الشمسِ كالزئبق. يتخطفُ البصرَ ويزلقهُ على رمال تزمرُ فيها ريح كالنداءِ الفاقد جدواه.

يأخـذُ الرجلُ بطرفي معطفهِ الثقيلِ إلى صدره. يضمهما بأصابعه

(*) فاسكوبويا ـ شاعر يوغسلافي.

الكبيرة. ذات الأصابع السارية فيها موسيقىٰ الآخر. إيقاعاته الهادئة، الآتية من لا مكان، الواصلة الى لا مخلوقٍ سواه. فاسكوبابيتي(*)؛ وتمرُّ لغتهُ سُحباً كالفضةِ في عينيّ الرجل السائرِ على حصىٰ البحر.

يواصلُ مسيرهُ غيرَ هيّابٍ من غيمة الرماد المعلّقة.

يواصلُ إمتصاصَ كلمات الورق ليسقيها ورق الصورة:

«انها تنتظرُ في إنعطافات الزمن
أعظم ممن يستطيعون لها نطقاً.
انها باقيةٌ على الأرضِ الرطبة
أثقلُ من عظامِ الحياة
ولم يستطع الموتُ أن يجرفها».

تجرفهُ موجةُ الحنين بعيداً. بعيداً عن البحر، وعلبة السجائر المشرعة، وخشب النوافذ المتشقق، الأخضر، ورملِ الرماد. يفيقُ ليشهدَ انه على الدرجاتِ نفسها. لونها الأبيض ما زالَ أبيض. تآكلات حوافها زادت. طلاءُ درابزينها الأزرق بهت. والشوارعُ خلتْ وضاقت. خلتْ وضاقتْ وضاقتْ حتى عسر عليه التنفس!.. فأخرجَ «الآه» في طولِ حبل السرّة حتى مضائق الأبد.

(هو البحر لم يتغيّر!): كتب للصديق اليوناني مرة حين أرسل اليه بمجموعة الصور. متى كان هذا؟.. تساءلَ دون أن يوجب نفسه بالجواب: (منذ الأزل! ربما.). لكنه رأى الوجه خاوياً، فزادَ سطراً الى الصديق اليوناني: (طالما أن المتوسطَ يمتدُّ حتى سواحلكم، فانّ الأمر يبدو في غاية المنطق. الهواءُ هو هو. والسماءُ هي هي. والنوافذُ إن لم تكن من خشبٍ

(*) موسيقي ايطالي معاصر.

متآكلٍ مطليٍّ بالدهان الأخضر، أو الأزرق، فلن تكون هي النوافذ على أي حال!).

أفاقَ مرةً ليجدَ نفسهُ يحدّث نفسه!

يحكي درسَهُ عن ألوان البحر المتغيّرة. وكيف تلوّنه السماءُ والأرضُ فيزدهي بالكثرة. لكن الماء واحد . والبحرُ مهما تعدّدتْ شواطئهُ واحد!

يومها، فركَ عينيهِ بأصابعهِ ـ لم تكن كبيرة، وكانت بيضاءَ من أثرِ أصبعِ الطبشور ـ ، وأكّد كالمنجّم: (ومع ذلك، تبقى للمدينة اسمها. اسمٌ لا يتغيّر!..).

..وأبقىٰ الإسمَ غير منطوق.

كيف يكونُ للغريبِ ان يلفظَ اسمَ المدُن؟.. (بلغةِ ساكنيها!): قال الرجل.

وكيف يكونُ له أن يلفظَ اسم مدينتهُ البعيدة؟.. (بلغة القلب!): هكذا قال الرجلُ ذو الأصابعِ الكبيرة. لكن أحداً لم يسمعه هذه المرّة. ما عادَ أستاذاً يُلقي درسهُ في الجغرافيا. نأتْ مدينتهُ.. سقطَ أصبع الطبشور.. وغلظتْ أصابعُ الرجل. أورمتها حبالُ السفن، وجففها ملحُ البحر في الريح.

حرّكَ الرجلُ أصابعهُ في الهواء، فخرجتْ اليه الصور. ملوّنة كالصباغ. نثرها كأنما النزقُ ثارت ثائرته. طارت فوق رأسه. أمرها بأن تبقى. فبقيتْ مسمَّرة. تأملها. تبسّم. تبسّم طويلاً. ثم عادَ وأمرها بالتحرّك والهبوط. فامتثلتْ، وهوتْ ترفرفُ وتتمايلُ كأي أوراقٍ تجذبها الأرض.

لحظتها. لحظتها فقط؛ بكىٰ الرجلُ، وارتعشت أصابعه الكبيرة.

غطّىٰ وجههُ بكفّيه. إنكفأ رأسهُ قليلاً. وغطسَ في حوضِ صدرهِ

الذي احترقَ، ولفظَ، هذه المرة، دخاناً بلا لون!

●

الغريبُ غريب.

والدرجات هي الدرجات.

وللصورةِ بقيةٌ لم يرها الرجلُ بعد.

●

كادَ ان يتعثرَ بها، الّا ان المواء الذي أطلقتهُ رنّ كالجرس في رأسه. كمن يصحو على نذير! رفع ساقهُ وخلّفها في ظلّه تمطُّ يديها.. تقنطرُ ظهرها.. ثم تعودُ لدفنِ رأسها الصغير في جسمها.

إستعاذَ؛ الّا انهُ عادَ وانشرحَ كونُه لم يخطُ فوقها.

انه يذكرُ هذا كله. يذكرُ الحادثة. يذكرُ القطة. يذكرُ ظلّه. يذكرُ عينيها الصفراوين كعَسَلٍ نفذتْ الشمسُ فيه. عَسَلٍ أذابتهُ الشمسُ فتميّعَ في وجهِ قطة! تلك كانت أياماً للرجلِ فيها ظلٌّ. للرجلِ على أرضهِ ظلّ.

تصاعدَ المزيدُ من الدخان الفاقد للونه، فاهتزّتْ الأصابع الكبيرة، وأردفَ الرجلُ: (إلهي! كيف يجوزُ أن يتفقدَ الرجلُ ظلّهُ فلا يجدهُ؟!).

أرضُ العسل. يقولون عنها. أرضُ العسل واللبن في السواقي المحاذية لحقول الذهب المُشعِّ. أين صارتْ؟.. أين صارَ هو منها؟ أهي التي نأتْ؟ أم هو الذي سرقتهُ خطواتهُ بعيداً بعيداً، حتّى تحوّلت الأرضُ إلى نوافذَ عتيقةٍ تشهرُ خضرتها في ضبابِ الذاكرة؟!

تأمّل الرجلُ المشهدَ الماثلَ مثلَ تأمّله لخاتمة صلاة الشفاعة. هديرُ البحر تخفتُ ضجته، لكنه يغورُ عميقاً حتى القلب. تتطايرُ ستائرُ النوافذِ التي أكلتْ الشمسُ زهرة لونها؛ لكنها تعودُ ساكنةً، لا صوتَ لها، كأنما هي

رسمُ أجادَ الفنّانُ فيه خديعته. أرخَتْ غيمةُ السماءِ حملها، فأمطرَ المدىٰ، وأغرقَ الصورَ بين أصابع الرجل. نقّعها. فتهدّلتْ، مثقلة، كورق «النشّاف» الذي إرتوى حتى سُدّت فيه المسام.

اختفتْ ملامحُ الصور. خرجتْ ألوانها وساحت فوقَ بعضها.

يحدثُ إختلاطٌ في المكان: يصيرُ المكانُ أمكنةً.

يحدثُ الإختلاطُ في الرجل: يصيرُ أصبعُ الطبشور أصابع كبيرة.

تمسُّ الأصابعُ صورَ الأمكنة. تتحسسها. تناجيها، كأنها جسدُ الحبيبةِ نامَ وطابَ للرجلِ تلمّس الدفء في هضابه وسفوحه. عسَلٌ يفيضُ من الجسدِ على الجسد، ويندلقُ منه على الأصابعِ الكبيرة.. ويبللها.

تشتعلُ الأصابعُ وتجمدُ على الألوانِ الغائرة في الذاكرة.

●

الرجل ينداحُ بين الصور. يحتارُ أيّها يختار. يحتارُ أي الأمكنة هي. وأيّ الأمكنة هو فيها.

الرجل يشعلُ سيجارةً جديدة، فيلتفُّ في المكان دخانها المُزرَّق، وينعقدُ قبالة جبينه. يهرشُ شعرَ الغيومِ في رأسه. ويكفُّ عن التذكّر.

يتلفّتُ حواليهِ في حركة نمرٍ يستيقظ. بطيءً، خدرٌ، حذرٌ، وفي الأمامِ ينجلي ضباب. يتبدد. يولدُ الحاضرُ من المكان. ينبتُ كما الشجرة. ويظلّله.

عندها. عندها فقط؛ ترتعشُ أصابعُ الغريب الكبيرة، وتنبسطُ مستسلمةً على خشب الطاولة.

●

ثمة رؤوس لرجالٍ تبزغُ من كثافة الدخان. في المكان ضجيجُ

اللغـات الكثيرة. العيون المُـطفـأة. العيونُ التي لوّنهـا الخمـرُ وأحاديثُ الترحال المتجدد أبداً.

يقلّبُ الـرجـلُ أصـابعهُ الكبيرة. يفردُ كفّيهِ الغليظتين. يحدّقُ في الخطوطِ المحفورةِ في باطنيهما.

تصفّرُ سفينةٌ على الرصيفِ القريب.

يتوفّزُ الرجل!

تصفرُّ مرةً ثانية. وثالثة؛ . .

يفرغُ الرجلُ الكأسَ حتى الثمالة.

ينهضُ بعضٌ من أصحاب الرؤوس. يربتّون على أكتافِ البعض الآخر.

يتناولُ الرجلُ صورهِ المبللة.

وينصاعُ للصفير الرابع.

●

عنـدمـا إقتـربَ الـرجـلُ، ذو الأصابعِ الكبيرة، من جسم السفينة الرابض على الرصيف، تلفّتَ باتجاهِ الضوء الشحيحِ الذي غادرهُ.

همسَ لنفسِه: لماذا الصور ذات الأمكنة؟

فلم يلقَ جواباً.

همسَ ثانيةً: كيفَ يكونُ للغريبِ أن يلفظَ اسمَ مدينتهِ البعيدة؟

ولم يلقَ جواباً، هذه المرة، أيضاً. إلّا أنه حَدَسَ به في القلب.

كورفو / عمّان

أيلول ٨٤

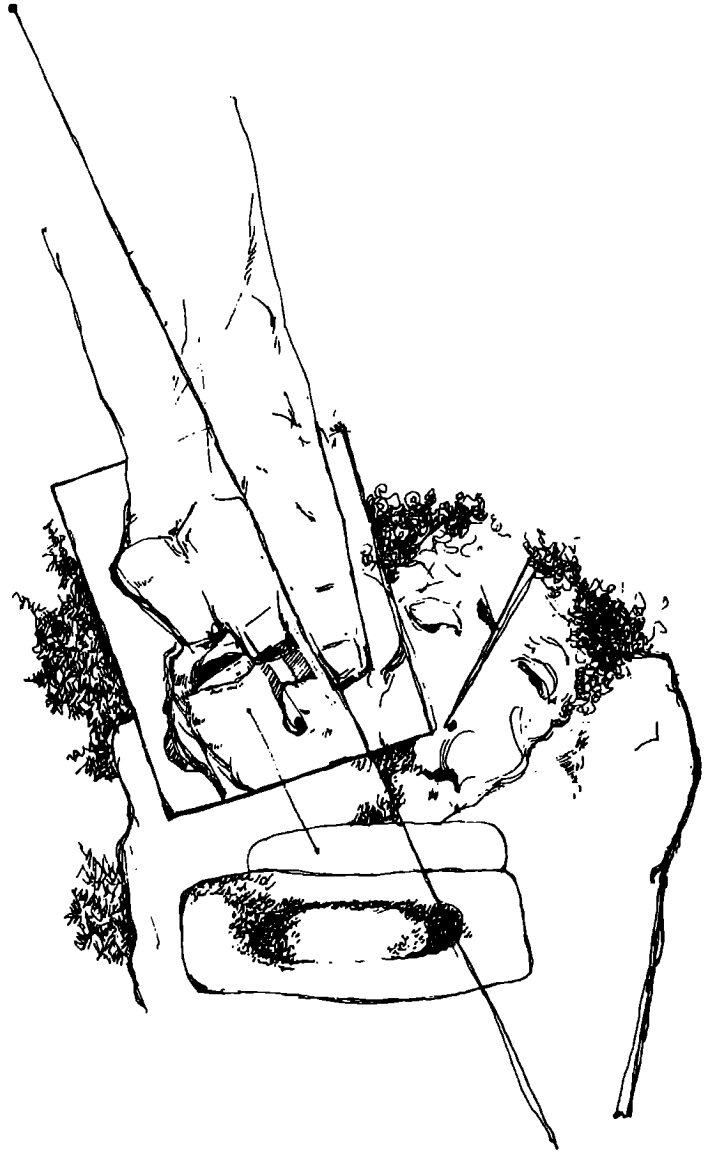

نقطة عبور

قالَ العرّافُ المغربي لأُمّي : «ستلدين ولداً ذكراً ! . . »

وفرحتْ أمي ، إذ لم يبق لها سوى ابنتين . أمّا الصبيُّ البكرُ، قد خنقهُ مرضُ التيفوئيد . كان هذا في زمنِ الداء المستفحل والدواء المفقود .

وأضاف العرّافُ : « . . وسيكون له شأنٌ عظيم ! » .

وفرحتْ أمي لذلك أكثر . لكن أبي ، حين بلغهُ الخبر، سخرَ من المسألةِ في تعليقهِ العابر . إلّا أنه ترك لشيءٍ ما ، في داخلهِ ، أن ينمو مثل أمنيةٍ تطوفُ في البال .

وكنت أنا .

أجلْ . اني أتذكرُ هذا كلما حضرتني حكايةُ أمي ، وهي تعبرُ بعينيها سنينَ الماضي ، وتستدرجُها بحنينِ التوقِ اليها . إعتادتْ ان تقول : «كانت أياماً حلوةً . أما هذه . . » ؛ وتسكت . فأحضّها على المضيِّ ، فتكملُ : «فليساعدْكَ الله عليها ! » .

يكتنفني الغمُّ الآن ، تماماً مثلما كان في الماضي ، وقت أن أسمع كلمات أمي .

أحياناً، أفكّر بالأمر كله، فأستنتجُ شبه ساخرٍ: «لربما كانت أمي هي العـرّاف!». لكن الزمن يمضي سريعاً خاطفاً معه العُمر، وأوراق الشجر اليابسة. غير مبق لها سوى شهادةِ مغادرتها لفرعٍ تعرّى. مجرد خشخشةٍ كأنها الحشرجة. ثم تضيعُ.

أكبرُ مع الزمن. تكبرُ الهمومُ معي. نصيرُ مثلَ كرةِ الثلجِ المتدحرجة من شاهقٍ.

رأسي يشـوبـه شيبٌ جديد. في القلب لحنٌ لم يطلع. ما زالت إشـاراتُـهُ غيرَ مدوّنـة.في القلب صوتٌ كأنما الإلتياع. وُلدَ معي، وها هو يشبُّ، ويكبـرُ، ويشيبُ، ولكن: ما لي أسمعـهُ يخفقُ بإيقـاعِ الـطبـل الـزنجي! أجـلْ. إنه يخفقُ بحق، فأتعرّقُ. في ساقيّ رجفـةٌ ليست هي الوهنَ. أبداً.قد تكون إنفعالاً. قد. . !

أمـرّرُ نظري في مسـاحـةِ القـاعـةِ السـاكنـةِ الكبيرةِ. أدعه يتسلق الارتفـاعـات الفـارغة. يُحاذي الأعمدة الناهضة نحو السقف المتعالي، الـذاهب في درجة التكثف حدّاً لا تتضح معه التفاصيل. أدرك فجأة أن السقف مطلي بالأسود.

الأرض بيضاءتلتمع. مشيت عليها. ملساء مكسوة بطبقة رقيقة من الشمع الشفاف.

كل الأشياء نظيفة.

والصمت مطبق.

سقـطت عينايَ الى الأرض ثانية. ربما أتعبهما التحديق في العلو الأسود السامق. وها أنا أعود الى الفضاء المحيط بي. وحيداً كحجر في قاع بركة سباحة. الساعة هي الخامسة صباحاً، والماء أزرق في كامل هدوئه وصفائه.

وأنـا: حجـر متـروك لكل الأشياء الصامتة، المسكونة بإحتمال أن تتفجر بالأصوات، في أي لحظة.

دوى صوت في مكبر للصوت، فهربت كل الأصوات من داخلي!

وعي جديد.

انهم يعلنون عن رقم الرحلة. رقم البوابة. شركة الطيران. جهة السفر.

انهم يعلنون نداءهم الأخير.

«ستطير الطائرة وسأبقى أنا!». قلتُ لنفسي، وأرخيت الربطة قليلاً، فتحررت رقبتي من ضغطتها الأنيقة. لم أستسغ عقدها في يوم من الأيام. ولا أعـرف كيف أعقدها حتى! أرخيها، ثم أعود لشدها حول رقبتي، ثم أعـاود إرخـاءها الى أن تبلى. لم أع نفسي إلا وقد جلجلت في داخلي ضحكة كأنها السم. تجرعت مرارته فور طلوع الصوت: «سيكون له شأن عظيم!».

. . كيف هذا، وأنا لا أعرف مهارة ربط ربطة العنق حتى الآن؟!

هل هو وعي جديد ؟

أنـظر إلى الساعة الهائلة الساقطة من السقف المظلم: الخامسة، وعشر دقائق، وثوان تزحف في مدارها الأبدي. يربض تحتها، في القاعة، درجـان يؤديان الى الطابق الآخر. ذاك المعلق بين هذه القاعة الخاوية، والسقف الأسود السامق. يبدأ بتشكيلات كأنها الأكشاك. علب. مساحات صغيرة مسورة بالألمنيوم الفضي اللون، والزجاج المحايد الفاضح. حاجز «مـؤدب» ونـاعـم. رقـيق يشـف عن ذوق خاص. قال لي الشـرطي: «تذكرتك». مددتها، فتناولها مني. فتحها دون أن يمعن نظره في صفحة

معينة. أعادها لي. وأشار علي كي أعبره. ولم يزد كلمة واحدة. وقفت وراء سيدة بدينة. هيئتها تدل على أنها أوروبية. تلك العلامات الفارقة: الشعر الأشقر الضارب الى الصفرة، الملابس بألوانها الهادئة، حذاؤها المطاطي الأنيق البسيط، والشعار المدبوغ على ظهر جواز السفر.

مرَّتْ بهدوء وصمت.

لم يقل الرجل الجالس داخل الكشك المزجج شيئاً. حدق قليلاً في شيء أمامه، ثم أعاد لها جواز سفرها. هزت رأسها بحركة تكاد أن لا تلحظ. ومشت.

كل الأشياء ساكنة صامتة.

سارت على الأرض المحمية بالمطاط الأسود. إرتطام ناعم أخرس لحقيبة كتفها بالجسد. إبتعادها خطوات عديدة. ثم غيابها المكتوم في رواق آخر لا يُرىٰ!

رأيته يخطف نظرة الى وجهي. لم أبال. عاد يحرك أصابعه على الشيء الذي أمامه. سكنَ الى إطراقة كأنما هي الدخول في تأمل ما. زفر. ثم رفع عينيه الى وجهي. وقال شيئاً لم أسمعه. الهدوء يخطف حتى الأصوات! مد يده بإتجاه كرسي عند درابزين الشرفة المطلة على القاعة السفلى. فهمت أنه يشير علي بالجلوس هناك. فخطوت خطوتين.. وجلست.

نعم. كان هذا ما حدث.

إنتقل إيقاع الطبل الزنجي الى رأسي. تساءلت كأنني أفيق على فكرة غابت عني: «وماذا تراني أنتظر؟..».

تذكرت: «الحقيبة!».

قال لي بعـد دقـائق من جلوسي على الكرسّي. وبعد أن أشعلت سيجارة لسيدة عصبية نحيلة إستأذنت ذلك مني، قبل أن تختفي في ذات الـرواق المعتم. وبعد أن طافت في مخيلتي صوّر كثيرة لم أعرف كيف أتت. وبعـد أن غادر كشكـه المـزجـج النـظيف (كنت آخر العابرين)، وإستدعاني اليه.

قال لي : «هل تلقيت الإذن بالسفر؟».

فقلت : «لم أتلق الإذن. ولكن الأمر منته».

حدق في عينيّ : «منتهٍ؟!».

لم أجب. هاتف قال ان لا فائدة من إطالة الحديث، فإستجبت له، ولم أجب. تركت للرجل اتخاذ الإجراءات. قال:

«سنأخذ هذا. وهذه الورقة للمراجعة..»؛

وصمت هو الآخر!

عنـدمـا أخـذت طريقي عائـداً نحـو الدرجات الهابطة الى القاعة السفلى، لمحت السـاعـة الكبيرة السـاقـطة من السقف، والمعلقة فوق رأسي : الخامسة إلّا ثلاثَ عشرةَ دقيقةً.

المكـان في غاية الهـدوء. غارق في السكينـة الصبـاحية. غارق كالحجر في قاع بركة السباحة. يحوطني ماء ساكن أزرق. ولكنني ألحظ انني أهبط على درجـات رخامية. تذكرت شيئاً، فتلفت على فوري الى اليمين: كان الدرج الذي صعدت عليه قبل عشر دقائق. ما تزال الكهرباء تشحنه فينطوي، وينطوي، بصوت خفيض، سري، ويأخذ إتجاهاً معاكساً لهبوطي المثقل بغمٍ جديد.

التذكرة في جيبي. ورقة المراجعة في يدي. واللحن، غير المدونة

«نوتاته»، يضرب إيقاعاً متصاعداً في قلبي.

فككت ربطة العنق تماماً.

فتحت ياقة القميص.

لسعتني نسمة باردة.

وأخذت أتمشى على أرض نظيفة، مكسوة بالشمع الشفاف، فلا يصدر صوت إلّا صوت وقع خطواتي المتعبة.

«سنأتيك بالحقيبة من الطائرة. إنتظر!». قال موظف شركة الطيران.

وكانت تذكرة السفر في جيبي.

جواز السفر إستبدلوه بورقة.

والصوّر التي أتت إلي، وأنا على الكرسي، فوق، عادت للمجيء ثانية: قبلة الزوجة وهي ما تزال مأخوذة بالنوم. هس! قلت لها. لا نريد للطفل أن يفيق. رمشت، وأطلقت بسمة سرعان ما إبتلعها فمها المزموم بحركة موحية. أخذتها إليّ بحنان الذي يودّع الحبيب قبل السفر. سمعتها تهمس في أذني وقد أفاقت: الا تريد ان تراه؟... هززت رأسي وتوجهت نحو غرفته. غارقة في عتمة يفتتها نور نائس. نائم تحت طيّات الدثار الرقيق. حول سريره دفء غزاني. وجدتني أنحني عليه، وأقبله بملمس فمي. لا أريد له أن يفيق. تململَ على التوْ، وعادَ تنفّسهُ للإنتظام. خطر لي قولُ لأمّي ـ نوم الملائكة خفيف ـ ! إلتقت عيناي بدمعة برقت في وجه زوجتي. مسحتها بردن منامتها. وأخذت بيدي، وقادتني خارج الغرفة. قالت: ماذا ستجلب له؟ قلت: العالم. وأنا؟: سألت. فقلت لها: كنوز العالم. كنا قد صرنا بعيدين عن غرفة الطفل، فطلع صوتها قوياً يقول: فقط عد سالماً يا سندباد!.. وخفق قلبي للكلمة. تسخر!! سندباد. السفر. التطواف في العالم. المدن. الشوارع. الناس. البحر. الشطآن. الإبحار في عين

الشمس، والنوم على حافة القمر. الاستيقاظ على فكرة أنني مسافر للمرة الأولى بعد سنوات من الدوران حول محور الكأس. في بطن الكأس. ذبابة لا تقوى على الطيران. ترى ما في الخارج ولا تصل. كنت أقول دائما إن العالم واسع وكبير. وكانت ترد علي دائماً بأنها تعلم هذا. نكتفي بهاتين الجملتين، ثم لا نلبث أن نجد أنفسنا في رحلة دخول، الواحد في الآخر، والإثنان في غيوم كأنها الحلم. أنت تحلم. قال لي صديق. لن تسافر. أضاف. ولمحت في عينيه إنعكاساً لكسرٍ ما، يحف بالموجودات المحيطة. اذن: فهو يرى. صرنا قريبين من الباب. الحقيبة جاهزة منذ ليلة أمس. نظفتها بقطعة قماش مبللة بالماء والصابون. أودعتْ فيها قمصاناً، وفرشاة الأسنان، ومعجون الحلاقة، وعقاقير قد تلزمني! وأودعتُ فيها صورة تجمعنا نحن الثلاثة: هي، والطفل، وأنا. وكتابان لتزجية الوقت عند الحاجة. حتى في السفر؟!.. وأشارت الى الكتابين. فقلت لنفسي عن الكتب هي العالم في شكل من الأشكال. يالـه من تعويض! حيلة العاجز.. ربما! وفتحت الباب على الفجر البارد، وفي يدي الحقيبة وقد شددتُ عليها.

الحقيبة أثقل من السابق.

إتسخت بغبار. وتدلت من مقبضها بطاقة رقم الرحلة.

الساعة الساقطة من السقف الأسود تشير الى الخامسة وإثنتين وأربعين دقيقة. لا صوت سوى حفيف الحقيبة تلامس قماش بنطالي. صوت مخنوق. مكتوم. والقاعة مقفرة.

شرطيان متلاصقان عند حاجز الخروج.

ينظران إليّ بفضول كسول.

أريهما ورقة المراجعة.

يهزان رأسيهما. ويتابعان إرتشاف شايهما من كوبين كرتونيين عليهما شعار المطار.

أخرج من قاعة السقف الأسود، فتستقبلني سماء صاحية للتو. أضع الحقيبة على الرصيف، واطلق لعيني حرية الإنطلاق في المدى. أتنبه الى صوت كالإصطفاق. أرفع رأسي فيصطدم عصفوران ببعضهما، تحت القناطر المسقوفة، ثم ينفلتان، معاً، صوب رحابة الصباح.

تمر وجوه كالخطف.

أتساءل: «ترى، هل عادت للنوم؟ هل أفاق الطفل؟»...

تمرُّ كلمات كثيرة: «سندباد. سأعطيه العالم واسعاً وجميلاً. سأجلب لها كنوزه كاملة. لن تسافر. مخنوق مثل كل الاشياء. كالدنيا. فليساعدك الله عليها. زمن حلو. زمن..، ولكن كيف؟ حلو!!.. خنقه التيفوئيد في زمن الداء المستفحل، والدواء المفقود!.. أنت ذبابة في بطن كأس. في البطن. ستختنق، وعيناك تريان من خلل الشفافية. ولن تصل. حجر مزروع في قاع بركة السباحة. الماء أزرق. الماء صاف. الماء بلا صوت. سواك لا أحد ينصت. لا يصل الصوت. كل الأصوات مخنوقة تحت الماء. وأنت..؛ أنت في فمك ماء...

●

لا يحدث الضجيج.

مرقت الطائرة في السماء.

شقت سمت العالم، وذابت.

لم يسمعها تحلق: الماء في الأذنين أيضاً!

عمان
أيار ٨٤

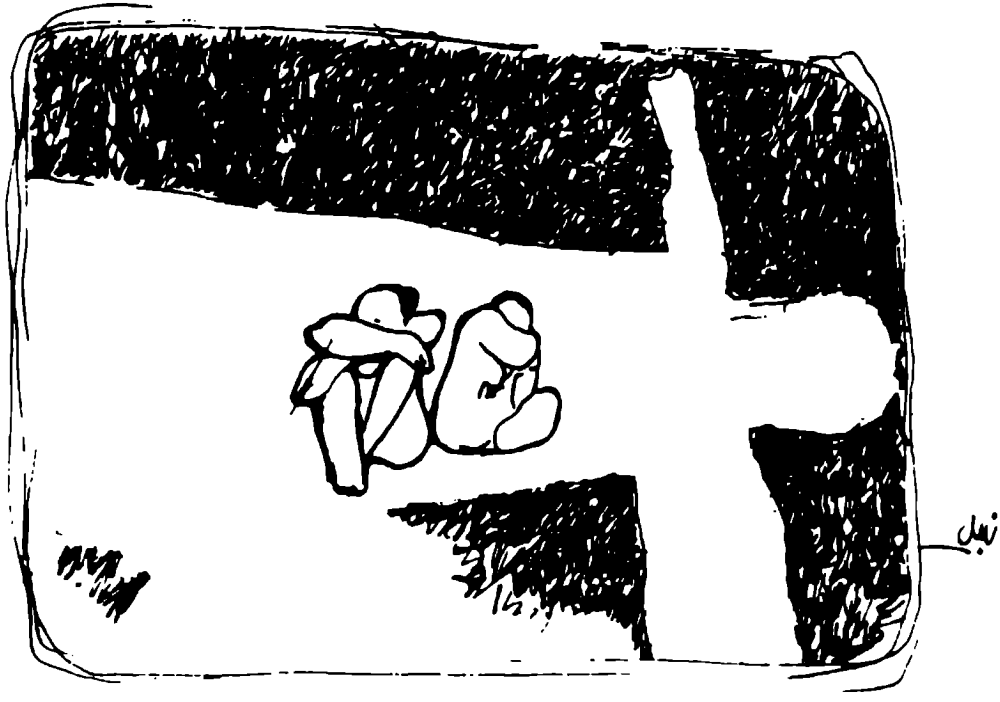

محطات الرجل والمرأة

توجعني اللهفة اليه.

آه ! على صدري، هنا، مثل أصابعي المدسوسة بين نهديّ. أريده هنا.

ذهب.

قال : سأعود. وأمسك بي من كتفيّ. فكنت له. لم أقل شيئاً. لم أقل لا. تركته يفعل ما يشاء. اغمضت عينيّ ليتسنّى له ان يفعل ما نشاء. وشاء أن تنسحب الأشياء معي. لم أرفض. انسحبتُ اليه فإنسحبتْ السماء فوقي وغمزتْ لي نجمة. إنسحب ثوبي من تحت ساقيّ. أحسست بملمس البلاط العاري. إرتفع الى خصري. لا. رفعه هو. وكنت أريد. أطلّ وجهه. رأيته للحظة قصيرة. واحدة. ثم أطبقت السماء، فسمعت صوتاً يتفلت مني.

●

الريق جاف.

والأرض بريكات تكفي لإغراق الحذاء حتى ذؤابتيّ البنطال.

شيء أكثر من التعب، هناك، في مؤخرة الرقبة. أشبه بتصلّب عضلة. مزع من الكتفين حتى إمتداد الساعدين. حمله ثقيل. حقيبة في اليد. تَعَبٌ في كل الأصابع.

يقف. تجول عيناه على الشاهق من المباني. كلها شاحبة الألوان. كامدة. كأنها بغير لون. سوى الأبيض المسوّد لا لون. لا نصاعة في المدى المسكون برذاذ واهن. أطبقت عتمة. هناك الأحمر المضيء. توقفت عيناه. لا بأس بقليل من الخطى الإضافية. لا بأس إن شرع بدخول محطة الغرباء.

الأحمر يافطة تعلن إسماً لفندق.

●

تشهّيته تلك الليلة وكأنها ليلتنا الأخيرة.

كانت الأخيرة .

خشيت عليه وعليّ الذهاب. سنفترق. هو كل ما لي. ورغم هذا تشاجرنا. كان هذا قبل ان تطل النجوم علينا من النافذة. لم أصح على نفسي إلّا وأنا أستفزه بكلام تدفق مني. كلام كنت أخبئه منذ وقت. لم يرد بشيء. هو لم يرد عليّ وإكتفى بغرس نظراته في الأرض بين قدميه. إعتقدت انه لا يبالي. تحوّل غيظي الى غضب، فعلا صوتي. كنت أتلفت اليه علّه ينطق حرفاً. لكنه لم يفعل. ما عدتُ أذكر كيف وجدتني منجذبة الى السرير. حدث هذا بسرعة عجيبة خاطفة بعنف وقوة الصفعة التي رجت رأسي كله. بكيت. لا لم أبك لحظتها. جزعتُ من أن مكروهاً حدث للجنين من جراء الصدمة. حضنت بطني وإنكفأت. جاء البكاء بعد وقت. ساد الغرفة صمت جعلني أتنبه الى خدر الصفعة على وجهي كأنها صعقة

كهرباء. هكذا يقول أحمد. الصعقة الكهربائية تشل وتبطل قوة اللسان، وإذا كانت عنيفة فهي تميت، اما إن جاءت خفيفة، فسيفلت الإنسان من ميتتها ويصحو. . لكن بعد وقت.

أفلت دموعي وكنت أراه يذوب من خلالها. ما يزال غارساً نظرته في الأرض بين قدميه. سمعته يقول شيئاً فإنصعت فوراً. أراه من خلال دموعي ينكّس رأسه فيميل جذعه الى الأمام ويستند بمرفقيه على ركبتيه.

آلمني ان أراه صامتاً بينما أنا أقاوم البكاء.

●

حين وصل الى مدخل الفندق كان قد إستنفد النفس. صخب اللهاث في صدره وقرع الطبول. ثلاثة طوابق من الشارع حتى هذا المدخل اللعين. تنزع الحقيبة نزوعاً ثقيلاً نحو الأرض. تجبره على الانحناء أو التقوس. ليس جديداً عليه الوهن الضارب في مفاصل ركبتيه. ليست جديدة عليه ملامح تلك الوجوه المتطلعة. «تزرعون الأرض فقراً!»: تفكر؛ وكانت ومضة تخللته وعبرت. هو واحد منهم. أجال نظره قليلاً، ثم أجّل تفحّص الوجوه حتى ينهي معاملة إستقراره الأول. قرأ على زجاج المدخل ـ يعرف القراءة ـ: ممنوع المقابلات داخل الغرف منعاً باتاً ـ الإدارة! «خطر!»: حدث نفسه مستعيداً في ذاكرته التنبيه الشهير: ممنوع الإقتراب. خطر الموت. ضغط عال!. . لكنه لم ير، عندما اعاد تمرير نظرته على زجاج المدخل، العظمتان والجمجمة.

تولدت مرارة ودبقت في الريق الجاف.

●

« رجل ليس كالرجال القش. سيفعل شيئاً. انا اقول لك. وسترين.

نعم. سيغيب بعيداً. لكنه سيرجع. بالتأكيد سيرجع. الغربة لرجل مثله. ولن يعود فارغاً. متأكدة من هذا. أليس ولدي؟! امثاله يعرفون كيف ينتزعون لقمتهم من أفواه السباع. بذرة أبيه ولن يكون أقّل منه في شيء. لا ينقصه شيء. سبع. فحل ابن فحل وأنت تعرفين. من صلب رجل كمئذنة جامع سيدي الحسين لا يطاطيء رأسه الاّ لخالقه. نعم! لا يشيل الرأس الاّ من خلقها..».

هي قالت هذا. أمه. هي لا تعرف شيئاً عن أحمد. تظن انها تعرف عن الرجال الكثير. ربما. اما عن ولدها؛ زوجي، فانها واهمة. مَن أخبر بالرجل من زوجه؟ حلاله؟ سره وبئر سره. الرجال يبكون ايضاً. هل رأته يبكي يوماً بعد أن نبت شاربه؟ اللقمة صعبة هذه الأيام. تحتاج الى سباع الدنيا كي تلتقطها الأصابع. وهل أرذل منها في إبكاء الرجل! الولد. نعم، الولد أيضاً. المرأة. هكذا يقولون. لكنه خلع رقبة القط منذ الليلة الأولى. أبكاني وطيّب خاطري وكنت اسمع زغرودة أمّه في الغرفة الأخرى. اهكذا يكون خلع الرقبة؟ تلك كانت المرة الأولى. كان خجلاً مثلي لكنه أخذني بساعدي رجل يعمل كثيراً ويكسب القليل. الستر دين الدنيا. وكان قد قام من فوره بدس منديل أبيض حيث كشف عن الستر وفضّه. اغمضت عيني ولذت بالوسادة المطرزة بعصفورين أزرقين وقلب. إلتصقَ بي بعد أن رمى المنديل من فرجة الباب. دخن سيجارة على السرير. كنت سمعت زغرودة امّـه الاخيرة. أطفـأهـا على الحائط بجوار الوسادة، وإقترب مني. لذت بالوسادة اكثر. فضحك ولم يبال..

قال يوماً : اكره هذه الوسادة.

تعجبت.

أضاف : تذكرني بالخطر. الكهرباء.

كيف ؟

هنا عصفوران وقلب. وهناك عظمتان وجمجمة.

نظرت في عينيه اللائذتين بالسقف للحظة، ثم ضحكت، وقلت: تعال يا معلم المعلمين.

وأخذته من يده الى الوسادة غير مبالية بوجومه.

●

وقف أمام الحاجز وسأل :

ـ اريد غرفة .

كان لرجل الإدارة، الجالس خلف الحاجز، لهجته المصرية ذاتها.

ـ كم سريراً ؟

لم يع السؤال تماماً، إلّا أنه رأى في وجه الرجل لون الشوارع التي ترك وخلّفَ منذ ساعات. لم يكد يتحرّق شوقاً الى التسكع فيها. لم يكن بارحها إلّا منذ زمن لا يحسب، ولا يلّح عليه بالحنين.

الحنين ؟

ما زال الوقت باكراً عليه. باغته الصوت بنفاذ صبر:

ـ ها . لم تقل لي ـ كم سريراً؟

ـ لم أفهـم .

ـ أأنت وحدك؟ . . .

ـ كما ترى .

وبنبرة التخفف من ثقل يربض في القلب، قال الرجل خلف حاجز الإدارة:

ـ أراك وحيداً يا أخ . . . ؛

وسكت كأنما ينتظر ان يعرّف باسمه.

ـ أحمد موهوب ! . . . أهو احمد موهوب المفاجأة دائماً؟ ! ! . .

وتطلع الاثنان الى مصدر الصوت.

●

ذهب الصوت وكففت عن البكاء. هو قال لي ان اسكت. لا. لم يقل لي هذا. أمرني ان أخفض صوتي. صوتك! بلا فضائح ! . قال. ربما كان هذا ما أغضبه ودفعه لصفعي ! أول مرة يفعلها! كانت صعقة. هو لا يحب الصراخ ولا البكاء. يحب أن يظل محتفظاً بهدوئه. فعمله ـ كما يقول ـ حساس يلزمه التركيز والانتباه والاّ فالموت. . . .

كدت ان اختنق بدموعي. يصفعني ! . لكنني، مع ذلك، حزنت لأنني أغضبته ورفعت صوتي في وجهه. انه لا يستحق ذلك مني. يكفيه ما يلاقيه في الورش. تعب وخطر وقلة أعمال. انت وحدك. يقولون له. تعاقدنا مع شركة. انت لا تستطيع. كيف! انا معلم كهربائي منذ عشرين سنة. لكنك وحدك. يقولون له، ويرمون في وجهه بورقة الشروط. إن استطعت تأمين ما في الورقة فلك العمل. لكنه طأطأ رأسه وابتعد.

ها هو يطأطيء رأسه غارساً نظرته بين قدميه. وانا كففت عن البكاء. وماذا بعد؟. الصمت. الخدر في وجهي الذي الهبته الصفعة. ترجرج جسدي عندما شدني من ذراعي وقذف بي الى السرير. الطفل! وكانت كفيّ تحضن التكور الصغير لبطني. صرت بجانبه. انا الى جواره أزدرد دموعي وهو كأنه ليس هنا. في وجهه حزن يوجعني. انا السبب. لا. هذا الحزن في وجهه منذ شهور.

قال يوماً : مصر لا تطعم أولادها !

فتركت القهوة تغلي وحضنته فكانت ذقنه على صدري .

لم يقل غير هذه الجملة . ولم اعرف ان افعل غير هذا . شعرت أن ليس هناك ما أقوله . مكثنا واقفين ، في المطبخ ، حتى أحسست بها تسحّ على صدري وتقطر بين نهديّ .

إلتهبت .

وإكتشفت لحظتها انني كنت ابكي مثله .

قال : لا بد من السفر !

وفارت القهوة خارجة لتهبط فوق النار فسمعنا طشيشها .

●

ـ أانت احمد موهوب؟! . قل غير هذا يا رجل !

وضحك . تطلع الى الرجل الذي إنتصب فارعاً وسط غيمة السجائر الثقيلة . رآه يتقدم نحوه . اسنانه بيضاء كشف عنها فمه المفتوح وكأن المفاجأة أمسكت بروحه . دقق في الوجه . من صاحب هذه القامة التي انتصبت في قلب اللغط والدخان الأزرق؟ هناك وراء بخار الشاي المنبعث من رأس المدفأة؟ . نشطتْ حواسه فتشبع أنفه برائحة التخمّر .

ـ احذر المدفأة !

هتف صاحب القامة المنتصبة وزاد من إقترابه .

تردد وغشاه إرتباك .

خطا المنتصب خطوة اخرى ، وصار في وضوح الرؤية . ولكن ، مع ذلك : من؟! . . . أطلقها بصوت جاف ، كحلقهِ ، عند مدخل الصالة

الضيقّة بجدرانها المكسوّة بآيات قرآنية مختارة، وبرجال إكتظت بهم كانوا يجلسون ركباً الى ركب.

خطا خطوة قصيرة. ثم فرد ذراعيه كطائر ارتوى ففز صوب السماء منتعشاً.

●

كان وجهي كالنـار. وكـان صامتـاً لا شيء فيه غير حزنه. إرتجاج جسـدي على السـرير أيقظني وأيقظ فيّ شهوة الانتقام من العالم. وذاك الحزن المغيظ؛ كم اكرهه. وجهه الذي يلفّه الحزن ويخرسه. ناديته. لم يجب. لا لم أنـاده. فقط همست له تعـال. لكنه لم يجب وظل يحدق تحديقته التي بدأت تشيع في عينيه لمعاناً ملعوناً. بربي سأكسّر العالم تعال وكنت قد زحفت إليه فإهتـز. أمسكت بوجهـه وأدنيتهُ بأصابعي عسى أن يراني. ماذا أقول؟ آسفة على صراخي فإفعل بي ما شئت. اني أعتذر. لم أقل هذا وتمنيت لو فعلت فربما إنزاح عنه حزنه اللعين. لا ليس هكذا تكون ليلة الوداع. غداً يسافر. ليلتي الأخيرة. وليلته الأخيرة ايضاً. وكآخر محاولة نهضت على ركبتيّ ودنوت منه. كاذبة انا. ليست محاولتي الأخيرة؛ إذ كنت سأحاول وأحاول حتى أوسده صدري الى ان يفيق العالم. لكنه إلتفتَ اليّ وإلتقت عيوننا. إلهي!.. كم من عذاب يخزن هذا الرجل في روحه؟!. وكـان سقوط جسدينا المثقلين بالندم بغير صوت سوى إختلاج أنفاسنا. إختلط لهـاثنـا بحفيف غطاء السـرير وإنحسـاره تحت وقـع أطرافنا التي تشابكت. لا ليس هكذا. قلت بصوت لم يسمعه إذ خنقته قبلة فاجأتني فأرخت قواي فإنطويت عند خاصرة قميصه الأزرق المترطب بالعرق.

●

إلتقيا كطائرين تاها عن سربهما المهاجر.

ـ أنت ؟!

ـ نعم انا. لا تقل..

قاطعه : كم هي الدنيا صغيرة. هاقد قلتها.

فضحك الرجل وعلقّ: تبقى انت مهما طال الزمن. أحمد موهوب. العتيق الذي لا يكسب غير عمره النامي. أتسمعني؟...

ـ ليس قبل ان تخبرني من اين أتتك هذه الفصاحة!

صارا داخل كتلة الرجال، وغيمة دخان السجائر، وعبق الشاي المخمَّر.

ـ وتصدق ؟

ـ أصدق.

ـ انها المدن الغريبة.

ـ كيف ؟

ـ تعرّ واعبر مسالكها ترَ.

هزّ رأسه وقلب راحتيه. عبرت شفتيه ابتسامة سرعان ما غاضت في الوجه الذي طفق الشعر يجدد فيه النمو. لم يفهم. لكنه قال ببساطة:

ـ أسعدني وجودك .

ـ قشة الغريق!... وضحك مضيفاً: لا بأس. كل المغتربين أخوة.

ـ ربمـا.

وكان حقاً لا يملك اليقين.

قال رجـل يجلس قبالتهما، يعتمر تلك القبعة الصوفية التي تغطي الرأس حتى الأذنين: عرفّنا يا سلطان. من الأمير الجديد؟..

فرفعا رأسيهما معاً وإلتقت عيونهما. ضحك سلطان بصوت غليظ مرتفع، وقال كأنه يعلن على الملأ:

ـ انـه احمـد موهـوب. حبيبي. صديق الـورش والمقـاهي وخطر الموت. نكس احمد رأسه، وسمع صديقه يكمل:

ـ . . أحمد موهوب معلم كهرباء صنف أول. يقول للشمس في عزّ الليل ان تضيء فتضيء! آه.

قال الرجل الذي سأل: أهلاً وسهلاً بالمعلم موهوب.

ـ أهلاً بيك .

وإستدرك سلطان: المعلم رمضان السيد. على خط عمّان بغداد. من العقبة حتى بغداد. سوّاق شاحنة كل أسبوع مشوار. كسيّب. والله حاجة يا جدعان! ناس بتحارب وناس بتكسب! . .

ـ حال الدنيا يا سلطان. قال أحدهم.

ـ هي حرب في حرب في حرب. قال آخر.

وعلّق ثالث: الذي يرميك على المُر يا سلطان. . !، وصمت.

فهزَّ الجميع رؤوسهم، ورشفت بعض الشفاه من كؤوسها القرمزية.

●

هنا عند الخصر أضع أصابعي وأقرصه. يفزّ ويشدني من شعري. أضحك. فيغتاظ ويجذبني اليه. أعضّهُ في كتفه وأدفعه!

شيء يتحرك في داخلي. أقول مهلاً وأرخي جسدي عليه. ما بكِ؟ يقـول. لا شيء. لا شيء. ولكنني اعـرف انـه الـذي يكبر في البطن. يحـذرني: انه جنى العمر الشقي يا امرأة! . لا تخف. اقول. فهو منك وقـطعـة مني. وأرفع ذراعيّ وآخذ رأسه هابطة به اليّ. يغطس وجهه في

صدري فتلين أصابعي وتتحسسه حتى منتصف ظهره. يفور. أحسّ به يرتعش. الى الأرض. يقول. فأهبط معه الى حيث يفضل ان نكون. اغمض عيني وأتركه يفعل ما نشاء. أحبه هكذا. ليس ليناً في المضاجعة مثلما هو في الكلام. يعرف أقصر الطرق ويبدأ. يسحبني اليه بينما يكون قد رفع الثوب. لا يصبر. يطل عليّ. عيناه زائغتان لكنهما تنظران بتركيز. فيهما إصرار يهزّ روحي. أعود فأغمض عينيّ. يلتصق الصدر بالصدر وتعبق رائحة. أفتح عينيّ فتكون النافذة المشرعة على الليل والنجوم الصغيرة التي تغمز.

آخذه بجماعه ليكونا معاً عند القلب وفي الأحشاء. الأب والإبن. بي. فأفرح لحظتها وأملك الدنيا. ابكي. يهدّني الحزن: سيسافر غداً ويتركنا وحيدين.

اكره اللقمة الهاربة في البعيد.

●

ـ والآن ، ماذا ستفعل ؟

ـ ابحث عن عمل.

ـ هنا؟. لا تحاول.

ـ لماذا ؟

ـ صعب. الأحوال ميتة. والرزق شحيح.

ـ والعمل ؟!

فرد سلطان بعد ان سكب في كأس صديقه للمرة الثانية:

ـ نسافر معاً.

ـ أين ؟

ـ بغداد.

فوضع أحمد موهوب كأسه على الطاولة.

ـ ولكنها الحرب! جئت لأبحث عن فرصة لا لأموت. ثم ما الذي يضمن...

وقطع الحوار عليهما، وعلى الجميع، صوت رجل الإدارة من وراء الحاجز: يا أخوان!

فتطلع أحمد موهوب.

ـ يا أخوان. على الرجال العشرة أن يدفعوا حق الفندق عن الشهر الماضي. تعليمات الإدارة هكذا. انا لا ذنب لي ولا مصلحة. كلنا اخوان وانا منكم كما تعرفون. على العشرة أن يسددوا وإلّا فستبقى جوازات سفرهم محجوزة في هذا الدرج. أحمد يوسف الوكيل، علي احمد علي احمد، مجدي أبو فريد، البدوي محمود، ابو زيد أحمد، السيد عبدالعزيز، محمود عبدالله محمود عبدالله، جابر محمد، ابراهيم عبدالحميد محمد، يوسف فريد لطفي!.. أمامكم مهلة حتى ظهر الغد.

علا اللغط في جو الصالة الضيّقة. أشعلت سجائر جديدة. ثم ران صمت كأنه تسليم بشيء او إنفجاره في داخل كل منهم.

ـ الإدارة يا اخوان. تريد أن تضمن حقها. قال الموظف من وراء الحاجز.

ظلت أصابع احمد موهوب معلقة بين الطاولة وفمه. ظل الشاي القرمزي معلقاً. هو لم يقرر. قراره معلق ايضاً. الى جانبه صديقه سلطان. يهمس له:

ـ ما بك ؟

فيجيب موهوب في شبه غيبوبة: لا شيء. افكر.

ـ بماذا؟ . . لقد كنت تقول عن الضمانة . ما الذي يضمن لك ماذا؟ . .

تلبست أحمد موهوب حالة عادت به من حيث اتى . ترك هناك زوجة تحبه وحملاً ربما يكون ولداً . غادر بيتاً لو لم يحصل على عمل لخرب . تغرب عن بلد قال عنه يوماً انه لا يطعم أولاده! . . فحنت عليه المرأة وبكت وودت لو تستطيع أن تطعمه لحمها . لا! لحمها لا . بكى هو ايضاً . لحمه هو . لحمها لحمه ولحم ابنه القادم . من يضمن لهما اللقمة؟ . . . من يضمن أي شيء؟ . ليس من ضمانة لأي شيء . أي شيء . وها سلطان يلحّ عليه . يضغط ويدفعه لإتخاذ القرار . يستمر بالسؤال . يذكره بالذي قاله قبل ان تهدد الإدارة الرجال العشرة . لماذا لم يدفعوا حق الفندق؟! . جوازاتهم محجوزة . مكبلّون . هُم بلا عمل وإلّا لدفعوا . إذن؟ . . هاك يا سلطان قراري فإسمع . . .

قال سلطان بعد أن عاد اليه موهوب، وقد غسل وجهه وإنشرح :

ـ ها؟ . . نهبط لنرى المدينة؟

ـ كما تشاء . أهي جديدة في شيء؟ .

ـ نهبط ونرى .

كانت الشوارع بريكات متفرقة على الاسفلت والأرصفة . اضواء يافطات المحلات المغلقة . رذاذ واهن لما يزل يهطل ناعماً خفيفاً . سماء معتكرة بأشباح غيوم ولا نجمة واحدة تبزغ .

اخذ سلطان نفساً عميقاً من سيجارته، وقال :

ـ غداً نسافر؟ . . وإمتزج بخار فمه مع دخان السيجارة .

ـ ولم لا ؟ . أجاب احمد موهوب : هل لنا غير السفر!!

وكانت أقدامهما تخطو فوق البريكات دون ان تغطس فيها.

●

هي النافذة المفتوحة على الليل. صدري الذي أريده مرقداً لرأس الرجل المسافر. هنا. المحطة الأولى والأخيرة. اضمه على صدري حرزاً يقيني أصابع الغد الغادرة. يتحسس بطني المنتفخ ليقول شيئاً للذي سوف يأتي. ولا يأتي. يظل مسافراً بين المدن والداخل يكبر. يقول هي محطات قبل الرجوع. سبعة أشهر. إشارتان ويخرج الصوت. يملأ المكان بالصرخة. يملؤني. أعبأ بها. تشحنني. وتنطقني، انا أيضاً، صرخة تزعق في محطات العالم!..

اقترب من النافذة فأرى الليل ليلاً كما هو في كل ليلة.

الشوارع من فوق هي ذاتها كما هي كل يوم.

السرير هو هو.

الخواء.

عري الحائط: علامة سيجارته في الليلة الأولى.

السهر الطويل على أصابع أدسها في الشق بين نهديّ.

وحدي.

الصمت يتسع لصوت يتفلت مني.. فأطلقه.

تغمز نجمة لي، في السماء، وتنطفيء.

عمّان
أيار ٨٥

الجدار الأخير

رغم ان رجوعك ما يزال حديثاً. حديثاً جداً. فقط منذ يومين. إلّا انهم انفضوا عنك فجأة وتحلقوا حول بعضهم بشيء من العصبية والارتباك. هل قلت شيئاً؟.. تتذكر. تعمل ذهنك جيدا عسى أن تجد كلاما قلته فأربكهم. لكنك لا تعثر حتى على كلمة واحدة. وقتها أدركت أنك لم تتفوه بكلمة طوال الوقت. ظللتَ ترنو اليهم وهم يتحدثون. ترنو الى داخلك بينما تعلو أصواتهم حسبما يقتضي الموضوع. حسب إيقاع الافتراق أو الاتفاق فيه. كنت ما زلت مشدوهاً بما جرى. مأخوذاً بالأصوات التي اختزنتها في أعماقك. لا. أنت لم تختزن تلك الأصوات، بل تكومت الأصوات فيك وأبت الخروج. وجدتها هكذا. تحسستها حينما تباعدت المسافات بينك وبينها.. فإذابها تضج في اعماقك، «حسنا. ليكن ذلك». وقتها اكتشفت قيمة الأصوات فحنوت عليها كأنما طفل صرخ في فراشك! تستيقظ ذات صباح وإذ بطفل في سريرك لا تعرف كيف جاء!: «حسنا. ليكن ذلك». لا يهم من أين جاء. كأنك كنت تقول هذا.

سكنتك الأصوات من حيث تعلم مصدرها جيدا. أتت معك.

تكومت فيك واختبأت، فحملتها في جسدك الى الرحيل الجديد. لست غريبا، في ذلك، عن الآخرين الذين فعلوا مثلك. ولكن، تسأل بلا صوت: «هل فعلنا؟..». وتنسحب من الاجابة مدفوعا بمشاعر أكبر من أن تتبينها. ترتطم في خلاياك مُرّة مُرّة. تنسحب من الاجابة، تفّر من وجهها، تبتعد، تركض، ولكنها لا تختفي وتظل كالساحة الخربة تنتظر دفن ما مات من الأجساد فوقها. ومع هذا، مع فرارك، يبقى العالم مقسماً الى ثلاث شظايا:

أنت ، والأصوات في داخلك .

الساحة ، والجثث تنتفخ عليها .

وهذا المكان الجديد ـ القديم الذي رجعت إليه حديثاً.

أنت لم تقل شيئاً يربكهم. متأكد من هذه الحقيقة. تطفو خارج الأصوات في داخلك وتطلع اليهم. يومان فقط. وهاهم ينفّضون عنك، تجمعهم حالة ارتباك وعصبية. لماذا؟.. أنت لا تدري وأصواتهم موجهة اليك هذه المرة:

« ـ مات جدك واليوم دفنه !».

تبحلق في وجوههم فترى انعكاس المرايا والواجهات الزجاجية. هي نفسها التي التمعت في جميع زوايا المدينة. فجأتك يومها ـ أول أمس ـ فظننت أنك تلج غرفة المرايا في متاهات سيرك كبير. ضعت، أو اعتقدت أنك ضعت. ليست هذه المدينة هي التي تعرفها. تدهش الداخل اليها ولا تدهش ساكنيها! جدك مات وأنت تتخبط في الدهشة! ماذا دهاك؟.. يقولون لك: «ماذا دهاك تبحلق فينا كال...». يخنقون البقية. فأنت ما زلت طازجاً وفيك رائحة الأصوات تعبق فيدارونها. يرفضونها إلّا انهم، أمامك، لا يفصحون.

« ـ ألم يمت من قبل ؟! . . » .

قلتها وأفرغت المكان لثقل الصدمة. وأيضا، هذه المرة، داروا الصدمة وتعاملوا معها كأنها حشرجة قريب طال مرضه وأزمن. فطال انتظارهم وبهتت مشاعر الحزن فيهم. كان أحدهم قد لفظ كلاما أراده كسرا لميوعة الجو، الا انه اكسبه لزوجة العبث. قال:

« ـ . . ومات الآن ايضاً! . . » . وضحك. لم يشاركه الآخرون رغم عدم ممانعتهم. أي شيء يا أنت. أي شيء يقودك اليهم. ولكنك ما زلت قصياً نائياً تضرب في أرض غير هذا المكان. فهّلا صارحتهم بالاختلاف؟ . . تلمس شيئاً من تعزية باهتة تتخللك برفق، فلا تملك الا ان تنطق جملتك الثانية:

« ـ إذن فقد مات أخيرا . » .

●

هي ذات المقبرة القديمة التي تعرفها. اتسعت وامتدت حتى خيّل اليك أنها احتلت محيطها الأكبر وابتلعته. خيّل إليك أم أنها فعلت حقا؟. ولكنها، مع ذلك، بقيت تلك المقبرة التي تعرفها. بضع شجرات صنوبر أثقلتها الأتربة. وكثير من نباتات الصبير نمت حول الأضرحة. تلك النباتات من أكثر ما تبغضه في أمكنة كهذه. ترى الى أشياء المقابر علامات سكينة وراحة. لكنك لا تستطيع مهادنة الخوف المزهر في ورقات الصبير. أتخاف؟ . . أنت تخاف؟! . . ممن؟ . . من الموت؟ الموت آخر المطاف. ختام الطواف. نهاية التجوال والتعب. فلم الخوف يا أنت؟ لست مؤمناً إذن. عيناك تشيان بهذا فلا تنكر. «من التراب والى التراب تعود!»، . . فهل تكره التراب!ـ

أنت لا تقدر أن تفلت من الذكرى. لن تنسى أبدا. أبدا. فكلما انفلت من الأمكنة ضربتك روائحها القديمة. حتى هنا. حتى المقبرة تحمل لك كثيرا من الروائح. لا بل أقواها وأبغضها اليك. فلا تهرب. لن تنجح كما نجحت مراراً في الافلات من الرصاص واحتمالات الموت الهابط عليك من فوق. كان ذاك ممكناً. كان ذاك في اليد، وما في اليد يمكن حبسه! أجل. حتى الموت بمستطاعك تدبير فرارك منه. تأجيله على الأقل. أو حتى النزوع الى شكل فيه واستبعاد آخر. لكنك حيال ما زرع فيك منذ زمن. . ـ

احدى وعشرون طلقة فقط. لا تطلقوا أكثر. نحن في أمس الحاجة الى كل رصاصة. نحن الآن في أرذل التاريخ. تذكروا أن الافراط في الاطلاق فوق القبر يقلب المعنى. يحرفه من الحزن المتكبر الى فوضى كرنفال رخيص. الى سيرك مهلهل ـ تماسكوا فأنتم في المتاريس الأولى عليكم حماية المدينة فاقتصدوا في الذخيرة. أمامكم عدو لا تنفذ ذخيرته. كل رصاصة برجل ـ كل إحدى وعشرين طلقة لرجل!!

كيف هذا؟ . . . يصطدم حذاؤك بصبيرة صغيرة تخترق بنطالك وتنفذ الى لحمك. تصحو. تتألم ويطفو بك وجعك الى ذاك الزمن: «مفرزة التشييع . . . » ـ أنت واحد فيها. «أحيطوا بالقبر بعد الدفن . . . » ـ كأنك في استعراض لا يحتمل. «انتبهوا الى أن البنادق مصوبة الى السماء وإلاّ . . . » ـ تعلم أن لا حاجة بكم الى مزيد من القتلى. لا ينقصكم أجساد تسقط فترفعونها. ثم تعاودون إسقاطها على الأرض. ومن ثم تدفنونها!

لا وقت للدفن الآن. لا يتسع الزمن للحرب وللدفن معا. «مجموعة الخنادق الأمامية . . . » ـ أنت واحد فيها. «هم يخشون التقدم

راجلين . . . » ـ تعلمت هذه الحقيقة على حدود الجنوب وفي مزارع التبغ . «ومع هذا فالحذر والحيطة واجب تتحملونه . . . » ـ وتحملت الشيء الذي تبغضه . لا بل فعلته أيضا . تحارب وتدفن . تطلق النار وتشيل عن الموتى أنقاض المدينة . ليست هي المدينة التي تعرفها . لكنك تدرك أنها الحرب دائما . تتمترس في شوارع تطؤها لأول مرة . تجاور رفاقاً لا تألف منهم ، في البـدء ، سوى بنادقهم . تتعرف عليهم وعلى المدينة . قدرك . تحادثهم . تألفهم ويألفونك . . فتحب المدينة . وفجأة ، تمرق فوق رؤوسكم خطوط حمراء وبرتقالية تخدد سماء الليل كالشهب . كالمذنبات .

تسقط قذيفة ،

فتلعن الألفة حتى الحقد . تعاود الدفن من جديد . على كتفك تعلّق البندقية . وبيديك تشرع بالرفش في فتح قبر جديد! لا تنسى أبدا . إلا أن الأصوات تتخللك فيتشبع لحمك بها . تنز منك كما يرشح الدم من ضمادة تنقعت بالنزف .

. . ويبقى آخرون بلا دفن ! بلا قبور !

تعلمت أن الحـرب تعنيك ولا تُعنىٰ بالذي تفضله . هي الحرب . أليس كذلك؟ لكنها ـ كما كانوا وظلوا يقولون ـ بلا حدود . تحمل عليك أنىَّ كنت . تحملها معك متى تواجدت . لا تقل : «في الجبهة عندما وصلني الخطاب . . . » ـ فأنت ، دون أن تدري وأحدس أنك بت تعرف ، أنت الجبهة ! . .

تضحك؟

هذا شأنك . أما الآن ، فعليك أن تدفن جدك الذي مات مرة أخرى . تدفنه وتحيا من بعده مرة أخرى .

. . يا لأمرك العجيب !

●

لو وقع عليك أحدهم في هذه المدينة ووصفك، لقال: «هو عصيٌ على الموت!».

أما أنت، لكنت قلت عن المدينة: «أعرفها ولا أعرفها!».

كلاكما غارق في الدهشة.

وكلاكما لا يمت الى الآخر بصلة.

في اليوم الأول لوصولك من الرحيل الجديد بكيت مرتين. مرة لخروجك من تلك التي اسمها «بيروت». ومرة لدخولك هذه التي تغيرت كثيرا. أهو الاختلاف ما هصر الدمعة فأسقطها؟ . .

ربما. وربما التفاصيل الصغيرة الصغيرة.

●

كان لجدك، الذي ظننت أنه مات من قبل، جمع كبير. داسوا على ورقات الصبير وأتلفوها. أتلفوا روائح الذكرى. نزعوا عنك مفرزة التشييع. تكاثروا حول جثمانه وتكاثروا حتى غطوه فغرق فيهم. صمت هائل غلّف المقبرة فكساها. وصل أشجار الصنوبر. وصل السماء. وصل المدى. وصلك واقترب منك يبغي الأصوات في داخلك. . فصرخت.

تحسبهُ شيئاً من الوهم؟ أو ضرباً من الخيال؟ أو شططاً وهلوسة؟ ربما أنت مُحِقٌ في هذا أو ذاك. قد تنجح في إثبات عدم واقعية الظن. لكنك تقر معي أن الأصوات هي آخر ما تبقى لك. وتعترف أيضا أنها الأعز عليك الآن. وأنها التي باتت مستهدفة! يخالونك عدت من رحيلك الأخير كي تفسد عليهم حياتهم. تصمت بينهم وتتركهم في أحاديثهم يغرقون. ما

الغـرابـة، ومن الغـريب؟! يضـربـون على بابـك علّك تفتح لهم. تأبى الاستجابة. تعزف عن مشاركتهم، ويعجزون عن الولوج اليك. فالصمت أثخن من أن ينفذوا اليه. تنطق أخيرا وما عرفت أنك كفرت:

« - . . ألم يمت من قبل ؟!» -

هكذا حكمت على نفسك بنفسك. قطعت آخر ما في الحبل من نسيج. باعدت بين قاربك وسفينتهم. أنت وحدك وهم وحدهم. من المنقذ ومن الغـريق؟ لم تسأل ولم يخطر ببالك أن تسأل. كأنما عدت مدججا بقناعات لا تدحض! لا تملك سوى الركون اليها. إلا الاحتماء بها. حتى وإن أثبتـوا بطلانهـا بالكـلام. بالاستنكار. بتصويب أيديهم نحو جثمان جدك، وقولهم: «ها أنت ترى موته. تقدمْ. اقتربْ وتحسسْ جسده. جسْ بأصابعك بدنه تجده ما زال فاترا. لم يمت من قبل. مات الآن فقط. مات للتو. احتضر حين دخولك علينا، عائداً من رحيلك الأخير. عندما وطأت قدماك عتبتنا. منذ يومين فقط. مع قدومك. وتصر أنت على نفي ذلك! تقـول انـه مات من قبـل! منذ زمن! . . . تداري جريمتك. أنت تداري جريمتك يا . . .

أنت الذي قتله !

. . وتصـل الى الأصـوات أخيرا. تتوارى فيها. ترجع اليها. هي ملاذك. ملجأك. جدارك الأخير.

●

حين غادرتهم لم تخرج على صمتك وتنبس بكلمة. لم تمكث سوى يومين. هبطت الدرجات مختزنا الأصوات المتكومة في داخلك. ما زالت لك لم يمسسها أو يعكّرها أحد. ابتعدت ويداك لا تحملان حقائب. بلا

عناوين. بلا رفش أو بندقية.
إن الرحيل يكون بدونها أيضا.

عمّـان
تشرين ثاني ٨٢

الماء ... وعز العرب منصور

لم يكن يختلف في شيء عن الآخرين من عباد الله.

فملامح وجهه تكاد أن تكون نسخة عنهم: شعرٌ جعدي. عينان بنيتان يشوبهما إصفرار خفيف. جبينٌ تتوزعه مسارب العرق. أنفٌ يميلُ الى الضخامة. شاربٌ مهوّشة شعراته مطبقٌ على الفم. كأنما محكوم على هذا الفم بالإنطباق منذ الأزل. لا كلام. بل على صاحبه أن ينام ويعمل وينام. ثم يعمل وينام. لا وقت للتفكير.

ومن جديد: تدور طاحونة العمل والنوم!

أما اليوم؛ فشيء آخر.

ففي الجو رائحة الحرب. إذن؛ عليك يا «عزالعرب منصور» أن تكون شيئاً آخر. هكذا فكر صاحبنا. لكنه لم يعرف كيف يكون. صحيح ان الحرب بعيدة عنه، إلا انه يحس طبولها تحت جلده. تنهشه رغم سماكة التعب فوق هذا الجلد المترب. ولأنه ما كان ليختلف في شيء عن الآخرين من عباد الله، فقد إنتحىٰ «عز العرب منصور» بالمذياع الصغير يتلقط أخبارها.

هي الحرب.

وعليه أن يشارك !

صحيح انـه قال ذلـك، لكنه ـ كالآخرين من عباد الله ـ، لم يدرِ كيف. فعـاد الى المـذياع يحاصره، ويعصر فيه أشياء لم يعرف يوماً أن يقولها.. فلم يقلها.

كان المذياع يتحدث عن رجال في حرب بعيدة يطوقهم العطش، لكنهم يقاتلون: يندهش «عز العرب منصور»! يحاربهم الكبار والصغار من كافة الجهات، ولكنهم يصمدون: يتزلزل «عز العرب منصور»!

(ما في اليد حيلة..!): يهمس «عز العرب منصور» مغتاظاً، وينظر الى زوجته. كانت، في آخر النهار، عاكفة على «طشت» الغسيل، وبعض الماء يطرش زنديها المتعرقين. ولأول مرة ينتبه صاحبنا الى ما تفعله زوجته. فهو مأخوذٌ الى المذياع بكل أحاسيسه، يزحف مع الدقائق ليصل الى نشرة الأخبار. تقترب النشرة. تدوي طبول الحرب تحت جلده. تبدأ النشرة، فتتفتح مسامات بدنه ليتشربها:

(مـا تزال الجهود الدبلوماسية تتكثف لفك حصار الماء عن بيروت الغربية. ومن جهة أخرى قال المستر فيليب حبيب مبعوث الولايات...).

رفع «عز العرب منصور» عينيه الى الزوجة كأنما يراها للمرة الأولى. كان المـاء يتماوج في «الطشت» القصديري مع هصر الثياب المتسخة، بينمـا فقاقيع الصابون والرغوة تطفو على السطح. يندلق قليل منه خارج «الطشت» ويبلل الأرض.

وفجأة، كأنما الوعي تفجر كاملاً، هتف «عز العرب منصور» بزوجته:

ـ من أين لكِ بالماء يا خضرا ؟!..

لم تجب الزوجة فوراً. أنهت عصر قطعة ثياب كالحة. رفعت زندها المبلول الى جبينها المندىً بالعرق ومسحته. ثم قالت بهدوء:

ـ لم تسألني عن الماء منذ شهر.

ونظرت اليه وقد بان الغضب في عينيها:

ـ أملأ البرميل من صنبور الجارة.

نكس «عز العرب منصور» عينيه حيال نظرتها كسيفاً، مهزوماً، أمام وضع لا حيلة له عليه. لكنه سمعها تقول بصوت علا وإختلط بصوت المذياع:

ـ تدبّر أمرك، وسددْ الفاتورة!

كان «عز العرب منصور» ـ كبقية عباد الله ـ، عاجزاً عن تغطية فاتورة إستحقاق لثلاثة أشهر، مرة واحدة.

أما الحرب، فكانت بعيدة عنه، لكنه يحسّ طبولها تحت جلده.

عمّان
تموز ١٩٨٢

تشکیل

إلى الصديق الفنان : **نبيل أليف**
الذي هاجر

لا شيء يوحي بالتحديد. لا أحد يعطي تشكيلاً يعبيء الحيِّز.

كل الأشياء هائمة، عابقة بما يشبه الأسيد، أو روائح كحولية غامضة. المسافات تتواصل كأنها بلا حد. بلا حدود. كالبحر. كالمحيطات بين قارتين نائيتين.

ويغطس العالم في الهلام حتى الغرق.

أو يطفو على الرماد الكثيف، الثقيل، بلا صوت.

هو الكونُ خلفية للوحة.

ولا شيء سواها في المكان.

ولكن :

يبقى هو !

هذا الوجه الفزع حتى الجنون. هذا الجنون الهارب يُسكنُ صرخته في صخر. يطل الوجه المتجمد على صرخة الفزع. وفي الخلف، وراء الظهر، يغطسُ العالم في الهلامِ ويغرق. أو يطفو، بلا صوت، فوق رماد كثيف ثقيل.

تنـز جبهته خطوط العرق وشماً خرافياً. تنز من الوجه حتى أصابع قدميه المتفلتتين. تتعرجُ بليونةٍ بين تثنيات الجسد كأنهار. تستقر قليلاً على ثنية الخصر المتخّلع في فراغ. يلمع الغبش عليها باهتاً. ثم تعاود جريانها النافر على عضلة الفخذ.

يصيرُ الجسدُ بحراً هارباً الى حلم شواطيء.

والبحرُ رجلٌ يخالطه نزيفُ العرقِ، والجزع، ورشح الدم.

ولا شيء يوحي بالتحديد. لا أحد يعطي تشكيلاً يعبيء الحيز. . إلاّه.

الكون الغاطس أو الطافي على الرماد رماد. لا الشمس تبزغ، ولا الأزرق يضـــربُ خطاً بين غيوم. كل الألـوان، في الخلف، وراء ظهـره المندفع، بالأسود الرمادي تتخفى. تختنق. تتحشرجُ وتغرقُ لم تترك منها سوى بقعة من الأحمرتبهت.

في الهلام ا مادي، وراء ظهره المندفع المتقوس، بقعة من الأحمر.

على عضلة فخذه المتمزقة، الملتمعة بنزف العرق، أخرى اكثرُ احمراراً.

أيتهما نارُ الإنفجار ؟. . .

والأخرى حرارةُ الدم؟

●

هو الرجل الهارب من فزعه كالجنون. ترى الى تضاريس وجههِ فتجد حدود الطعن. في كل الزوايا وعلى كامل المقابل من رأسه. لا فاصل بين حد وحد. بين غور الدم تحت عينيه، وبهوت النافرِ من عظمةِ وجنتيه. بين إنشطار شفتيه، والثلم القديم في طرف الذقن.

لا فاصـل بين حد وحد. هو المطعون بين الضد والضد. الخاسرُ الدائم على ساحة المكان.

لو تفّوه بالحبِ، لتفتتتْ الكلماتُ على لسانٍ ثقيل،
فينشطر الفمُ !
ولو رأى الى العُري، لامّحتِ الأجسادُ في بصرٍ كليل،
فتُسَملُ العينان !

ولا يبقى إلّا قوة العضل. يهرب. ينقذف عبر الهلام في الهلام ولا ينتهي الهـلام. لا يتـلاشى. يتكثف من حولـه ويتضبب. يسوّره من كل الجوانب. يحاصره خفيفاً ويطبق عليه. خفيفاً ولكنه يحجب، عن جسده، المكـان. خفيفـاً ولكنه يخنق، في الحِسّ لديه، الزمان. هلام. هلام. والصرخة في الحلق حجر. والصرخة في الساقين المتفلتتين جمود. فيرتّدُ الى وجههِ ثم يفّرُ منه! يخشاه. أيقن ان لا ملامح له. صار هلاماً أو يكاد. صار يخشى على نفسه من نفسه.. والنفاذُ من الجلدِ محال.

يرتعشُ الانشطارُ في شفتيهِ فتكبرُ الصرخة.
ترتجفُ ذقنه المثلومة أخيراً بعد إنتفاضة كامل الرأس؛
فتنفردُ أصابعهُ مثلما غريق !

●

بالأمسِ فقط، وفي الساعة الخامسة، كانت له يدٌ وقبضة. كانت له أصابعُ خمسة. يعملُ بها. يجهدها. يلطخها بالزيت والألوان وعبق البشر. يغسلها فتعودُ نظيفة وتبقى على مهارتها. يمررها في أماكن أخرى فيسري اليهـا دفـءٌ جديد. يلامسُ سخونة رغيف. رهافة وجهٍ حبيب. ثم طراوة الصـدر العـريض، النافر، ذي الثمرتين الأبديتين، الأزليتين، فتدور به

الدنيا. تماماً كأنما أنجز تشكيلاً أولياً لمشروع قادم. ينتفضُ من فرح ومن نشوة. يتمزق العالم الى شظايا ويتبخر شاهقاً سامقاً في الغيم غيمٌ آخر. تكون حرارة. ينتشي. ينتشي قليلاً. ينتشي أقل. تكون برودة. يكون ينظرُ الى النافذة التي يكسوها غبارٌ وشرخ. يذكرُ أشياء كثيرة. تنفجرُ الدنيا ثانية، ويسقط في حِسٍ بليد.

ماذا دهاه ؟

لم يعد يفصح بالكلمة ولا باللون. لا بالصوت ولا بالخطوط. باتت الأشياء من جانبه تمرُ به وتعبره. تلامسه وتستقر فيه. تعيشه ولا يعيشها. تغتذي به فينحّلُ رأساً هابطاً ويداً ثقلت في حركتها المهارة. كل الخطوط والمنحنيات دوران ثور ساقية يتكرر، في الرتابة، حول محور قديم. كل الألوان انسحبت منها جواهرها وتحيّدَتْ في الرماد.

ولكن لماذا ؟

ماذا رأى ؟

لا يجيب، بل يداور كثيراً ثم ينبس خافتاً: «صرت أرى السكون !»

وماذا في السكون ؟

يقرر مهصوراً بعذابٍ كبير: «لا شيء. هُلام!».

. . ويغطسُ في الهلام ـ كما العالم في اللوحة ـ حتى الغرق. ليست يده وحدها بأصابعها الخمسة فقط. بل كامل جسده. أو يطفو على الرماد الكثيف، الثقيل، بلا صوت.

هو لا يتكلم.

لم يعد يجيده.

لو حاول: لتفتتْ الكلماتُ أصواتاً ملغزة لا تُفهم.

وهو لا يرسم.

لم يعد يطيقه.

إن جرب، خرجت الوجوهُ بملامح هي من داخله. من الأشياء التي لامسته وإستقرت فيه. التي عاشته وتغذت به. تُخَطُ الوجوهُ بشعةً، جزعةً، مجنونةً، وتبقى. لا تتحرك اكثر. لا تواصلُ الفعل. تتجمد على إلتوائها الصارخ كأنها تمثال. تمثالٌ من حجر. . والحجر صرخة. تمثالٌ من رخام. . والرخام جزع. تمثالٌ من ملح. . والملحُ عذاب. أي «لوط» أنت أيتها الوجوه الثابتة على جزعها؟! أي معصية إقترفت أجسادك حتى تعاقب بصرخة الملح؟! أي كُفرٍ عشته في وجه الرب؟!. . .

« ـ كان لا بد من أن أنظرَ للوراء حت أرى!»

ولكن أمر السماء غير هذا. أمرُ السماء. . .

« ـ نعم. أعرفُ. ما كان مسموحاً بالنظر الى الوراء!».

. . وفعل. نظر الى الوراء، فرأى العالم سكوناً عظيماً. الحركة منفيةٌ خارج الأشياء. تدّبُ الأجسادُ خلف أرزاقها. . ولا تتحرك. تسقطُ على غنائمها. . ولا تعمل. تربض على عورات بعضها. . ولا تُنجبُ سوى الأشباه الناقصة. تخرُجُ أصواتُها. . فتكونُ الكلماتُ سواء.

وهو منفي في الصرخة الثابتة. في حركةٍ ملتويةٍ جامدة. في سكون كالهلام. الجحيم من ورائه، ولا إبتعاد له عنه أو خلاص. باق مكانه متحشرجاً بصرخته. ينوءُ بثقل جسده الملتوي على وضع أبدي!

وماذا في الساعة الخامسة، من يوم أمس، حيث كانت له يدٌ وقبضة؟ أصابع خمسة يعمل بها ويجهدها؟ يلطخها بالزيت والألوان وعبق البشر؟ يغسلها ويمررها على سخونة رغيف؟ يرسم رهافة وجهٍ حبيب، ثم ينام على

طراوةِ الصدرِ العريض بثمرتيه الأبديتين الأزليتين؟ . .

ترى إليها، في اللوحة، فتجدها مفرودة على وسعها مثلما يد غريق.

●

هو الرجلُ الهاربُ في صرخةٍ كالجنون.

يختزنُ هواءً في صدره عسى يمكنه من الإفلات. ولكن، لا يدري أن قدميه، في الهلام، غارقتان. كالأصوات غارقتان. كالأشياء غارقتان. تماماً وقت أن شعر، لأول مرة، بالموات.

كان ذلك في الساعة الخامسة، وخمسة أصابع في يده نظيفة. نظر الى صدر حبيبته. . فكان عريضاً، دافئاً. مثلما هو في كل يوم حين يتوسدهُ طرياً ككومة عُشبٍ أخضر. وقتها، إكتشف يباس الصدر وخشونة ربوته.

بدأ الانفجار !

كان ذلك في الساعة الخامسة، وخمسة أصابع في يده نظيفة. نظر الى النافذة التي يكسوها غبار وشرخ. فرأى، من خلال الغبش، أشياء المدينة. شوارع تسقط على الناس وتنسحب! ماءٌ جامدٌ ما بين فم متخشب والصنبور! رؤوسٌ إلى الأرض تنحني، وفي أعقابها تتجرجرُ الظهور! قطط تمرقُ كالشهب، وفي أثرها سيولٌ من الفئران تطاردها!

بدأ الانفجار !.

كان ذلك في الساعة الخامسة، وخمسة أصابع في يده نظيفة. نظر الى غرفته فرأى أكداس لوحاته، على الأرض، تتثالُ ألوانها على بعضها البعض. عيونُ شخوصها «البطلة» تنساحُ مهزومة في وجهه. تطلبُ من مهارة أصابعه غفراناً. تدقُ في قلبه طبول إنكسارها. تنشبُ في صدره أظافر خنوعها. لم تكن هي الوجوه التي أرادها. والأشخاص لم تكن هي

الأشخاص! كأنما غير يده فعلت تخطيطات الأساس! أو يده، بأصابعها الخمسة الملطخة بالزيت والألوان وعبق البشر، هي التي لوّنتْ وهج الانتصار!

بدأ الانفجار !

أحمر كنار الحرائق حين تأكل خرائب أحزمة المدُن المتصدعة.

أحمر كالدم لمّا شخب من عضلة فخذه المتوفزة.

وإنطلق فالتاً من كل شيء.. إلا منه.

ترك إمـرأة أطلقت في ظهـره سؤالاً. تلملمُ قمـاشها على اللحم، وتـدفـع بذراعهـا قاصراً عن الامساك به. غرفةٌ إصطفقت نافذتها بحائط المبنى. هواءٌ تشبع بما يشبه الأسيد. رسوم ساخت ألوانها على بعضها، وهبطت الى تصدع الأرض.

.. ومال الكونُ به عنيفاً، ثم استقر.

فوجيء بنفسه على الصرخة جامداً. على إنطلاق جسده ثابتاً. على الهُلام يغطس فيه ويطفو. كلُ الألوان تحايدت في الرماد سوى إثنتين:

كرة من نار في خلفية اللوحة، بين الهُلام، تمزقُ الهُلام وتبزغ.

دمٍ ينبعُ من عضلة فخذه، يخرقُ الأنسجة المُنهكَة ويطلعُ الى خلاص.

الأولى نارُ الانفجار،

والأخرى حرارةُ الدم.

أما الصرخةُ: فلم يسمعها سواه. والإنفجارُ الأولُ، في رأسه الضاج، كان سجيناً يتوثبُ للإفلات. ما كان يريدهُ لنفسه. يراهُ متشكلاً أمام عينيه. يسمعه يمور في الشوارع وعلى جدران البيوت. ولا أحد يسمع! ولا أحد يرى!

. . حتى كانت الساعة الخامسة، وأصابعه الخمسة نظيفة.

إنفلق الكون على الهلام. مال عنيفاً. ثم إستقر.

وها هو جامدٌ على صرخته. ثابت على إنفلاته. في الرماد، خلفه، كرة من نار. من فخذه الممزقة يشخب الدم. وعند كعب قدمه الواطئة الأرض الغرقى يتشكل لونٌ جديد! يعشوشبُ نامياً، كأنما من لحم الساق، وينفرشُ متحدداً اكثر فأكثر! يبدأ رمادياً في الركبة. . يغمقُ قليلاً تحتها. . يدخلُ الأخضرُ الخفيفُ في مساحة القصبة. . ثم، وبقوة، يندلقُ أخضر كالعشب معشوشباً في زاوية المشهد!

كان ينساحُ كالنهر تكاد تسمعُ رقرقته! . .

يتماوجُ كأنما حقلٌ تمرُ به الريح! . . .

●

هل كان الرجلُ، ذو الصرخة الحجر في حلقه، يرى الى ما تحت قدميه؟.

عمّـــان
آذار ٨٢

آخر النهار

في الوقت الذي بدأت فيه الشمس بالخفوت، شرعت أرجل أربع تمد خطاها نحو الطريق. هادئة، حذرة، ببطء إبتهال عميق عميق. في وقتها المرسوم منذ زمن. في لحظة إنهزام الشمس وسقوطها.

بدون كلام أو حديث، أو حتى إشارة تقول: هيا!

بدأت الأرجل الاربع طريقها هبوطاً على درجات من حجر. الوقت خلف الظَهرِ مركون في البيت. تركوه هناك ربما في زاوية الشرفة، أو تحت إهتراء ثنية البساط العجمي مع نثار من غبار.

هو مثل الخطى يتوالد كالحشرجة. يطول كنهار الإجازة في صيف قائظ. يتثاءب من طول امتداد النوم ولا عمل يُفعَل! كأنما كائن أنجز ما ينبغي عليه إنجازه، وإنتهى. لا شيء يفعله. لا مهمة تُوكل اليه. أما القوة، فمنها قدرٌ لم ينشف بعد.

وها هي الخُطى تخلصُ من إيقاع الحجر في الأرجل، وتمشي مع هسيس الهواء في الشجر. صفان أخضران يرسمان بينهما للكائنين درب الصعود.

الدرب طويل.

الصعود يبدأ ولا يذوب الا في الغباش.

والعجوزان يملكان من العزيمة الصامتة ما يدفعهما للشروع!

●

على مسافة من الدرب الصاعد كانت هناك شرفة.

على الشرفة الحجرية كان هناك رجال.

والرجال كالرجال: ينفثون من أفواههم ضجراً عتيقاً لا يعلمون أنه ولد معهم. كالوشم. كالإسم المدون في شهادة الميلاد. يبغضونه، أو يستظرفونه، إلّا أنهم يعيشون فيه حتى الممات.

الرجالُ على الشرفة الحجرية يقتعدون كراسي عالية. ينتصبون على مقاعدها كالمنائر الوامضة في كسل. تراهم العيون ولا يلحظون مما حولهم شيئاً. موجودون وغائبون. يثرثرون عن عالم كبير تصخب فيه رصاصات كثيرة. والشرفة ضيقة تزدحم بهم.. أو تكاد.

●

قصيرةٌ هي أنفاسهما، وقصيرةٌ اكثر حين يدبان على درب الصعود. ولكن، على الساقين أن تواظبا الحركة لتنشيط دورة الدم. ينتشلان جسديهما المفككين. يعيدان ترميمهما. يتزودان بما تبقى من عمرٍ طري ثم يغزوان من الطريق ما تآكلت عليه نِعالٌ كثيرةٌ، وما ستتآكل!.

●

من عطفةٍ صعبةٍ يخرج فرشُ كعكٍ كأنما سطحُ سفينة تمخر. يتماوج مجروراً بحبال سريةٍ كلما تصاعد الطريق. يبرز تحته صبيٌ أسمرُ لا يعرفُ ما يُعرِقهُ حتى منبت الرقبة: أهو حر الشمس الذائبة، أم سخونة الكعك المفروش على الرأس؟.

يصعـدُ، ويصعـدُ، ثم من خلال قطرة علقت على رموشه، يلتقط النداء: (ـ كعك! تعال. . !).

. . تصخبُ السفينةُ على موج الاسفلت الأسود الصلب، ولا يلحظ ربانها صمت الصعود لعجوزين ملاّ الوحدة حتى الاختناق.

وقبل ان يصل الشرفة الحجرية، كان الرجال قد إستهلوا وقتاً جديداً جهدوا أن يملأوه. قال أحدهم:

ـ دمٌ كثيرٌ. . لا بد!

ردّ آخر:

ـ لا بدّ. ودمارٌ كبير!

ـ حسنٌ، . . إستطرد ثالثٌ ثم تساءل:

ـ يعني كارثة!

كانت لهجته تنمُ عن تأكيدٍ، فأضاف الأول:

ـ أطنـانٌ من الـرصـاص! جبـالٌ من الإسمنت المحـروق! شوارعٌ مسحت بأكملها!

نتشَ الثـاني طرف الكعكة، فإستحلب مذاق السمسم وإستطيبه. ولكن: ارتفع حاجباه كأنما صدمة أذهلته:

ـ ملح! لا يوجد ملح في عجين الكعكة!

فرد الصبّيُ المعروق:

ـ آسف. ولكن يوجد ملح. .

ـ قليل. قليل من الملح. فقط. . .

(. . فقط لو يتلهى هذا المزعجُ بكعكته ويريحني!): فكر الصبي وهو يناول كل رجل حصته من الزعتر! . . .

●

تمنيا لو كســرا عادة هذا اليوم، وبقيا في البيت. ليس عجـزاً عن مواصلة الخُطى؛ ففي الأعصاب بقيةٌ كافيةٌ لآخر النهار وأكثر. ولكن، في الجو الآن روائح أخرى. روائح في الصدرين لا تُشَم. تعبق وتغلّف الروح حتى الهوس. يتشربانها حتى الثمالة. يثملان حتى السكون:

(في الدُرج الثالث، على يمين سريرها، يقبعُ كتاب الصوّر. كثيرةٌ قديمةٌ هي الصوّر. واسعٌ هو العالم. قاسٍ هو الإبن! كيف يكونُ، هذه اللحظة؟ يفكر بها؟ بأبيه؟... بالحديقة الصغيرة التي إستباحتها أعشابٌ غريبة ما كانت لولا غيابه؟!. ترفع عينيها باتجاه الآخر الى جانبها، فتراه كما في كل يوم. أنفٌ كبيرٌ، حادٌ، كصقرٍ هرم. طولٌ فارعٌ حنته جداول الشتاء لما تسربت في الظهر. وذاك القميص النظيف بلون السكر. حلواً كان عند اللقاء الأول. ولكن، ألأنه المفضل لديه؟.. ألأنه الرجل المفضل لديها؟! ها هو يدبُ الى جوارها، وعيناه لا تطرفان عن الأفق الغارق في الغباش. العرجةُ الخفيفةُ في ساقه اليمنى تهزه كلما خطا. تميل به كما غصن يستقر. العرجةُ الخفيفةُ تختفي في الساق اليسرى، عندما يُشرعها لخطوة جديدة).

(عند نهاية الدرجات الحجرية تبدأ الفوضى. يدبُ الفساد. وفي كل مرةٍ يرى هذا الهجـوم الأخضر الوحشي، يستيقظُ قرارهُ القديم: عليّ أن أقصّ هذا الحشيش المصفر!.. وينسى. تذهب به ذكرى فاترة، فيخدر جسمه، ويبتعد عن الركن حيث أدوات الحديقة. يقتعد الدرجة الأخيرة من السلم الحجري، ويسكن. عكرٌ في العينين لكن اللون بائنٌ كالذهب. شعــرهـا كالـذهب. قالت، لمـا لمسهـا لأول مرة: عيب!.. ستكـون فضيحة!! أتاه الصوتُ اللحظة كأنما انشق العمرُ عليه دون ضجيج العالم!

كيف؟ . . ونظر اليها وهي تتكيء على ذراعه. تتسلق وإياه درب الصعود. كان الرماد أول شيء رآه منها. حريقٌ اشتعل، وإشتعل، وأبقى على هذا لما خمد. أين الذهب؟! هو لم يسأل، بل ربما لم يفطن ان يسأل. كان رأسها يحتك بكتفه كلما خطا بساقه اليمنى، فيطفر منه حنوٌ جديد.

●

عندما إرتشف احد الرجال آخر ما في كوبه، نفض عن شاربه بقايا السمسم. تجشأ. تمطى. ثم قال:

ـ لا أروع من الشبع !

كان لون الشاي القرمزي قد غاب عن زجاج الكوب، وإنفلش في غيم الغروب. في قلب الغباش الذي ما عاد غباشاً.

لم يفطن أحدٌ لمرور العجوزين في الدرب الصاعد.

فالرجال كالرجال: ينفثون من أفواههم ضجراً عتيقاً لا يعلمون أنه وُلِدَ معهم.

صبيُ الكعكِ أبحرت سفينته في لزوجة النداءات،والتشكّي، والربح اليسير.

أما العجوزان : ففي أعلى الدرب إستقرا. يلفهما احمرارُ الأفق، وروائحٌ في الصدرين لا تحترق!

عمّـــان
أيلول ١٩٨٢

الخلاص

إنـزلقت قطرة الندى، تحت وطأة فتح الباب على قصدير الباب، وانفلشتْ بين أصابعه. ترطبت يده.

ترك الزقاق من خلفه، وصَعّدَ نظراً تعباً في السماء المخنوقة بشفيف صباح صيفي. هكذا هو الآن مبكرٌ. هكذا هو، على الوقت، يسير قدماً باستقامةٍ ظنها تتوازى وقطف الخلاص.

سيسافر.

طفرت من عينيه دمعة حين جاءته رسالة منها. دمعةُ عصيٌ ولكنها ابنته تطلبُ منه القدوم اليها. الى السفر خارج الزقاق، والصخب اليومي، ودقة الصرف حتى آخر قرشٍ لرغيفٍ لقمته الأخيرة يابسة.

صار على الإسفلتِ العريض يقفُ.

باتت مدينة السفر أقرب.

بدت مسيرة هذا الصباح أيسر.

بدأها بفرح أرجعه الى صباه. أنساهُ ـ لدقائق ـ أنه شيخٌ، فسرت في عروقه دماء جديدة. أخذت الشوارعُ، والبناياتُ، والوجوه المقابلة تنداحُ عنه الى الوراء أسرع.

حتماً سيكون اليوم في أول الطابور.

ساح منه على جلده اللين، تحت الثياب، عرق غزير. أبصر بداية الشارع الفرعي، وفي منتصف إمتداده عاينت عيناه نهاية الطابور!!

كان طابوراً من الواقفين طويلاً.

حتى هذه المرة، لم يكن أول الواصلين!

تنهد تعبُهُ مستنفداً بقايا شيخوخةٍ، وأخذ مكانه وراء الرجل الأخير.

●

لماذا، حين يكبر المرء، تتقلص أمنياته الى عددٍ يُمسكُ باليد الواحدة؟

ولماذا، عندما يعتكر الكونُ في البصر الكليل، تتبخر الأمنية الى حلم أقرب الى العبث؟

لم يسأل الرجل الشيخ نفسه هذا السؤال. بل، حين تزحزح مع الطابور خطوةً، استكان الى حكمة قديمةٍ خرجت منه، رغماً عنه، وإنتثرت فوق الرؤوس. إستدار اليه واحدٌ كان يرى منه قبة قميصٍ نظيفة، وقال:

« ونعم بالله يا حاج. فهو مع الصابرين ». . .

وهكذا إستراح الرجل الشيخ قليلاً، فأخرج أوراقه من الجيب الداخلي لصدر «قمبازه».

عاينها ورقةً ورقة، مثلما يفعل ناس الطابور، ثم أعادها بكل حرص من هو في عمره.

الرجل الشيخ لا يعرف القراءة، إنما هو التأكد والحرص. انها أوراقٌ خمس بالتمام والكمال. حفظها عن ظهر قلب من طول التعب والزحف. ثلاثة أيام وهو يزحف. الى هنا أولاً. ثم الى السوق في صحن المدينة. ثم

عودة الى الزقاق وترطيب كف المختار بورقة نقودٍ ليلكية اللون. وهكذا (طبع الختم)!. رجوعٌ الى السوق، فالجبل حيث التصديق الآخر. والبدء من جديد هنا.

كان الطابور قد إستطال وتبعج من بعض نواحيه. شرطي يتبخترُ وفي يده عصا. «العصا لمن عصىٰ.. يا شاب»، فكر الرجل الشيخ، وأشاح بعينيه عن ديك الصباح المتبختر. سرى همس في الطابور أن الموظفين إنتظموا جميعاً وراء الحاجز في الدائرة. إستنفر الشيخ جهازه العصبي المتآكل. «إذن سيفتحون البوابة عما قليل!». ازداد الاستنفار في الجهاز المتآكل، ووخزته ضربة ألم في مثانته. إستعاذ بالله وتجرع الرجاء: «ليس الآن!!». ثم عاد للإطمئنان على كافة الأوراق الثبوتية. للتأكد: كاملة!

هي أوراقٌ خمس. حفظها الرجل الشيخ عن ظهر قلبٍ من طول التعب والزحف:

تقدير السن، ـ نسيه كم بالضبط ـ.

أربع صور شمسية، ـ ما تزال رطبة من ماء الدلو أسفل جهاز التصوير في الشارع ـ.

عدم مطلوبية من التعبئة العامة في الجيش، ـ لم يبق شيءٌ من العمر أو العافية ـ.

إستمارة معبأة بكافة المعلومات لطلب جواز السفر. مطرزة بصفين من طوابع البريد، ـ في حرز حريز حتى نيل الخلاص!ـ.

.. وتدافع حشد الطابور، وفي الطابور رجلٌ شيخٌ تخزهُ مثانته فتنهدُّ أعصابهُ المتآكلة. إرتطم به صبيٌ فإهتز! داست على قدمه سيدةٌ متطاولةٌ فأنَّ ولم يبال! دفعه رجلٌ بجثة عظيمة فكاد ان يجثو على الأرض! «ليس هكذا!

ليس هنا!»: تضرع الرجلُ الشيخ وإستمات حتى يقف. «ليعطني ربي القوة حتى أصل مدينة رسوله!».

كان الرجل الشيخ، بقمبازه المترب وإهتزاز مشيته، آخر من دلف الى الدائرة من الطابور الطويل.

●

لم يكن الرجل الشيخ يعرف ان هذا يوم الحشر. أن هذه البوابة، التي شُرعتْ، تؤدي الى كل هؤلاء البشر المتراصين.

بدأ يفقدُ ثقةً استيقظت معه هذا الصباح.

طوابير جديدة تغطي الأمتار القليلة أمام الحاجز الطويل. طوابير متراصة تصطدم ببعضها، فتخرجُ الصرخات غير مفهومة. نساء يشرن للرجال أن إحتكاكهم بأجسادهن، في صباح كهذا، عيب! «أعوذ بالله!»، إندهش الرجل الشيخُ. ولكن: من أين يبدأ؟... هذا طابور صغير.

إنضم اليه ومرت دقائق. ربع ساعة. طال الطابور وكبر، والرجلُ الذي في المقدمة ـ امام الحاجز ـ لا يبرح مكانه! يهصرهُ الحشد من خلف ومن أمام. ينز عرقهُ من جلده اللين تحت الثياب. تختلط رائحة الأجساد الحرّيفة وتتكثف في رئتيه. يلوذُ بالصبر والتحليق في الحلم. سيصلُ مدينة الرسول. هذه نعمة مّنَ الله عليه بها. أول سفرٍ له خارج الزقاق سيكون الى الرحمة. الى أرض النبي الطهور. الى مكة. «مكة.. إليكِ أذهبُ، وعلى أحجاركِ أُلقي بنهايات تعبي. هي الأوفىٰ في هذه الدنيا. وعدتني بزيارةٍ لقبر الرسول. وها هي تفي بالوعد: (عليك، يا أبي، ان تنهي معاملة جواز السفر. بعدها سنحصل لك على تأشيرة الدخول!)...

.. وأفاق الرجل الشيخ من حلمه. ربما بسبب لعنة أطلقها أحدهم

لغاية يجهلها الشيخ . وربما لأن هصر الأجساد ثقل عليه . وربما لأن وخزةُ الألم الفظيع في مثانته أنذرته بأن يفيق! «هذا ليس أوانك!» إحتّجَ الشيخ في قرارة نفسه . وفي قرارة هذه النفس كان يعرف ان لا فائدة من المحاولة . يقفُ دقـائق، ودقـائق، وأجـزاء من الساعة، ولا يسيل منه شيء . يؤلمه الاحتـراق في المثـانـة حد تقـوصـه كقـوس . يستنـد بجبينـه على جدار المرحاض . . ويئنّ . لا فائدة . لا شيء . «البروستات»اللعين يمزق روح الشيخ .

ولكن ، عليه أن يحاول .

ولكن، كيف يُخلي مكانه في الطابور بعد كل هذا الوقت؟!

تماسك الشيخ .

تمر الدقائق أفاعيَ تلتف على عنقه الناحل . « الطريق الى الخلاص يمر عبر تجربة الصبر يا انسان!» : يتمتم الرجل الشيخ .

وفجـأةً، يلسعه الألمُ نزولاً صاعقاً من المثانةِ حتى أصابع قدميه، فيهتزُ جسد الشيخ . يغتصبها على إستحياء بصوت مهزوم :

« . . أين المرحاض؟ . . يا شاب، أين المرحاض ؟» .

كانت عيناه تلمعان بفاتحة دمعةٍ صعدت من الألم حتى رأسه، فلم يطق عليها صبراً .

●

عندما عاد الرجل الشيخ كان يعاني ألماً، كجمر جهنم، بين فخذيه . عاد متقوص الظهر ينظر الى مكانه في الطابور. وجوهٌ لا يعرف أصحابها . زحف اليها يبغي دوره الذي تركه . حقهُ الذي ما ناله إلّا بعد أربعة أيام من الزحف والتعب . قال ان هذا دوري . فسمع ولم يصدق : «إستح يا رجل!

أنت عجوزٌ وتريد إغتصاب دور الآخرين!!». حار كيف يجيب. ماذا يقول لهذا الرجل القصير؟ أيحكي له عن تعبه من اجل ختم المختار؟ أم عن صعوده الى الجبل المقابل ليثبت انه عجوز لا ينفع للجيش؟ أم عن البنية التي تنتظره كي تطوف به حول قبر الرسول؟ وماذا عن السفر خارج دائرة القرش الاخير ولقمة الرغيف اليابسة؟.

السفر يا رجل. السفر الذي لا يكون إلا بجواز السفر. وها أنا أقبضُ على الأوراق الثبوتية كاملة. فدع لي دوري يا بني. انه دوري! حقي!

تجرأ الرجل الشيخ ولمس كتف الرجل، فانتفض الأخير كمن لسعه عقرب. نظر في وجه الشيخ وزمجر صاخباً: «ماذا تريد؟! أنت ملحاحٌ وتزعجني!». ولكن، ولكن الشيخ إستفاق على الجمر بين فخذيه يزيده كيّاً. تلوّى أمام الرجل القصير وقال له مشيراً الى المنطقة:

«ـ إنه هذا يا بني! هذا الوجع اللعين!»

«ـ ماذا! عجوزٌ وخَرفٌ أيضاً؟..»

كان الرجلُ القصير يصرخُ، فتكومت عيون القاعة على الشيخ شبكة ثقيلة. شبكة رزح تحتها كطريدةٍ خارت قواها فاستسلمت. لم يعد يقدر على إثبات شيء. لم يعد مهتماً بنفي أي شيء. فقط هذا الإحتراق الذي إزداد. هذا الاحتراق كجهنم كيف يطفئه؟...

ما عادت الأوراق الثبوتية تهمه كثيراً. أجّلها ودسها في جيب «قمبازه» الداخلي، وبدأ يتراجع. كان يزحف مهتزاً كمن يتراقص على إيقاع دفقات الوخز الحارق. تراجعت عيون الناس عنه تلهث وراء جوازات سفرها. هو رجلٌ إقتنص من وقتها ثواني.. وعبر. مثل موتٍ حدث أمامها بالصدفة في الشارع. قليل من الدهشة.. ثم العودة الى المسار اليومي. دقيقة من

التأمل . . ثم السفر في رحلة اشياؤها أهم .

تركته العيون يعبرُ القاعة متراقصاً .

تفحصه الشرطي عند البوابة بملل وعدم إكتراث .

وعندما وصل الشارع ، شد قامته لدقيقةٍ كأنما يستعد لأن يستغيث ، ثم أخذ يدبُّ كظلٍ ثقيل .

عمّـــان
شباط ١٩٨٢

علاقة

دارت في البيت.

غرفتـان اثنتـان، الحمّام، المطبخ، وزاوية مزججة تتسع لكرسيّها الهزّاز، وطاولة جسمها من قصب.

لم تكن مستحثـة تجاه الأشياء. تنتقل من مكان الى آخر بقدميها الواهنتين، وفي صدرها يتنفس التمهل معطياً للوقت ارتخاءه والكسل. تمر على أشيائها بثقة التي تعرف أشياءها ولا تطيل النظر. هي موجودة كالأمس وكالغد وكالصوت الرتيب في الخارج. لا أحد ينكرها، ولا قوة قادرة على نفيها. ما كانت تحتاج لمن يؤكد لها ذلك. شامخة كالحقيقة تتلبس كيانها، والى الزاوية المزججة تزحف.

تضع قهوتها المغلية على الطاولة القصب. . فترتاح ذراعاها.

تتأنى بانزال جسمها في الكرسي الهزاز. . فيسترخي الورم في قدميها الواهنتين.

يصير الصوت الرتيب في الخارج مطراً يهمي فوق تربة كالإسفنج المشبع.

هي العجوز في البيت وحيدة. يخرُ تنفسها في الصدر مع انحنائه نحو القهوة. سكبت، ففاحت في المكان طازجةً تديرُ الدفءَ شعوراً في مسام البدن، وتضيف الى غبش الزجاج طبقة. وعندما إنسابَ الدافيءُ في حلقها، بعد أن لسع تجعيدة الفم، أيقنت ان مهامها انتهت.

لا أحد يجبرها على التنفيذ. فالعجوز هي الوحيدة المالكة والملكة لهذا البيت.

غرفتاه الاثنتان: سوّتْ سريرها في الأولى ومسحت البلاط تحت السجادة.

(شيئان من زمن زواجها باقيان).

أما الثانية، فلقد اطمأنت الى نظام ترتيبها الذي لم يدنسه أحد منذ أيام عشرة.

(هذا هو يومها الحادي عشر دون أن يزورها أحد).

طردت غباراً رطباً من على مقاعدها الضخمة ومنافض السجائر.

(زوّارها، أبناؤها لا يدخنون، ولكنه الإكتمال لأشياء الصالون).

. . وقبل أن تغلق بابها نظرت الى أبنائها المسمرين على الحائط. كانوا خمسة.

(أصغرهم ذهب الى حربٍ لم يعد منها، فبعثوا لها بصورة ملونة له على طبق ورق كبير. كان وسيماً.).

أما المرحوم : فإطار سادس.

الحمّام: نظفت مغسلته بالصابون إثر شطفها الأرضية. وبالخرقة المبللة، وأصابعها المرتعشة، شع الإنعكاس في المرآة وجهاً محفوراً بالصمت وبأخاديد جلدٍ رطب. معجون الأسنان في مكانه، على الرف

الأبيض تحت المرآة، وفرشاتها تطل من كوب تلطخ برشقة صابون لم ترها.

المطبخ : واسعٌ قديمٌ يكفي العجوز ووجباتها الدقيقة، المضبوطة بوقت عفوي. لا شيء في جرنه سوى ماء فاتر، في وعاء بلاستيكي أصفر، تطفو عليه اسفنجة ما تزال جديدة.

والمطر يهمي خلف الزجاج.

ترقبه العجوز يتساقط كنثار الثلج من كرسيها الهزاز. ثقيلا، مغبشاً، رتيباً. رشفت رشفتها الأولى فصعدت، ككل يوم، صورة في الذاكرة راسخة. كالزجاج غير منقاة ولكنها، عند العجوز، ضياء. ترى المطر ثلجاً بطيئاً خلل بخار القهوة.. فتكّذب. هي تعرف أن الثلج ـ من وراء الغبش ـ ماء. وتعرف ان الصورة غير المنقاة ـ في ذاكرتها ـ هو. المرحوم الذي كان يحدثها في المكان ذاته. يرشف قهوته معها قبل الخروج من البيت. تبقى لوقتٍ تنتظر. يقصر أو يطول. ولكنه يأتي.

هي المالكة والملكة..

وهي الوحيدة..

وهو لا يأتي أبداً.

تكاد تتحشرج هذه اللحظة، فتستنهض همّة متبقية وتقف. يخرجُ المكانُ من مداره. تنتصب على قدمين واهنتين فتدور الأشياء في رأسها. لحظة، لحظة، وتنقشع الرؤيا. تستعيد التوازن وتفتح النافذة. لا تبالي بالصاقع الذي هب مع الهواء. تأخذه الى صدرها الضامر، تتنفس مراراً، وتسقطُ واهنةً في كرسيها الهزاز.

لا أحد يقدر ان يقول كيف لاحظت مروره الخاطف. لم تره كاملاً. هذا الجسم الصغير المبلل. كالومض، بلا صوت، دب على الأرض ـ

الاسفنج واختفى. كان كسنابل الحقل في لونه. رأته قريباً أمامها. لا؛ هي لم تر منه سوى شفافية هيكله الوامض. ظنت أنه تحت الشجرة، فجهدت عيناهاتبحلق. ما كان الاّ جذعاً بنياً وأغصاناً تقطرُ المطرَ كأصابع استغاثة. في خلفية المشهد سور اسمنتي متصدع. ليس هناك. اضطربت العجوز كصغيرة أضاعت مصروفها. أين هو؟ تساءلت إن سمعت صوته. حقاً؟ شككت في حواسها. أخدعني البصر؟! أرهفت أذنيها فربما يصلها مواؤه. قد يكون خاف صوت فتح النافذة فلطى في خفاء الحديقة. ماذا لو أدخلته البيت؟ عبست العجوز: سينتف قماش المقاعد ونسيج السجادة! سيسرق قليل الطعام المتبقي! سيفعلها تحت السرير!! لا. لا. ولكن؛ لانت عضلات العجوز واسترخى وجهها: سيموء في الفجر ويوقظني. سيقفز الى السرير فأحس دفئه. سيتداخل جسمه عند قدمي، وفي الليل تؤنسني عيناه. سيكون الذي أُحدّثه! لن يفهم، ولكنه سيموء مجاوباً. لم تعِ العجوز نفسها وهي تزحف الى الباب وتفتحه. سرق ذلك منها جهداً مضاعفاً إذ فار كيانها بالقلق والترقّب. عادت الى كرسيها الهزّاز ثانيةً. أضحتْ كوتر انشُدَ حد التقصّف. شحذت حواسها إلى أقصى ما تستطيع.

لا صوت !

سوى تيار الهواء الصاقع المندفع.. لا صوت.

غير الشجرة العارية المبللة تحت المطر.. لا شيء.

عدا التربة البنية المشبعة كاسفنجة.. لا لون.

تزداد ضربات قلب العجوز، ولكنها غافلة عن ايقاع الورم في قدميها الواهنتين. لم تفكر، هذه المرة، بتأثير الاضطراب على قلبها الضعيف. غابت الأشياء وحضر هو. أجل هو. ستفعل من أجله كل شيء. ستسقيه

حليباً ومن طعامها ستغذيه. أجل ستفعل. ستأويه وتدفئه. لو يحضر! لو يدلف من الباب المفتوح. لو ينسل اليها يموء فتأخذه في حضنها تمررُ إرتجاف أصابعها على ظهره المرتعش.

صارت العجوز تلاحقه في خيالها. تراه يصعد الدرجات بخفة القط. أيا قطي لا تبتعد. تعال. ها هو بابي مفتوح لك فادخل مع الهواء الصاقع. لا تتأخر. سأدفئك وأسميّك اسماً آدمياً. ها! ما رأيك بـ «أنيس»؟ يليق بك يا أشقري الجميل.

تراه يقطع الحارة بين بريكات الماء فيدهشها تناسق خطواته. تتشوف لامتلاكه كائناً يعيش في بيتها. يشاركها مملكتها وملكها. ها هو يصل فم الحارة وعلى الرصيف يقف. حذار أيها الجميل! عد الى الحديقة! ستدوسك العربات!.

اضطراب العجوز يعصف بأعصابها فيهتز كيانها. كأرجوحة يصير. لا تملك إيقافاً لجسمها. يخرج عن طوعها وينتفض. تنتصب فيضغط الورم على قدميها. لا تبالي. هي في طراد مع الجميل الأشقر. تراه يتقدم الى الأمام. قف! لا تقطع الشارع! عد الى الحديقة!

يتفجر رأسها مع هجوم الصوّر، فتصرخ كأنما نار لسعت قلبها:

« ـ قف! . . . »

وتنهار مثل حمل ثقيل، بينما يهتز كرسيها بصوت كالتمزق هذه المرة.

كان دمه ينسفح في عينيها مع دمعتين رطبتين. أما أذناها، فبزعيق العجلات أغلقتا دون رشق المطر على العتبة.

عمّان
آذار ١٩٨١

قبل أن يأتي الذباب

«لا. لم يكن الذباب قد أتى!..».

قال الرجلُ وسكتَ. ينظرُ الى الأوراق التي يدون عليها الضابط أقواله طوال الوقت. ينظرُ بعينيه، ويحسبُ في عقله ألف حساب لكلماته. أتفيده.. أم تضرُّبه؟!.. وما كان بيده ان يمتنع. هو الشاهد البالغ الوحيد الذي رأى ما رأى. أما الصغير..؟ ولكن: أيصدقّون أن ما رآه لن يوصلهم الى شيء؟ لن يدلهم على الفاعل؟ ويحسم: من يدري؟. ويطردُ ذبابةً حامت حول رأسهِ وزنّتْ.

« إذن، كانت الجريمة حديثة الوقوع ؟...»

« نعم. لستُ أدري يا سيدي الضابط. ربما. مؤكد أنها حديثة الوقوع، وإلا لكان الذباب قد غطى بقع الدم تماماً. نعم. أنا لم أرَ شيئاً.. سوى الجثة. ولكن، كما يقولون، وكما أعرفُ أنا، ان الذباب يشتهي الدم. وأن الدم...».

لم يلعن الرجل هذا اليوم الذي قاده الى ما رأى. لم يغضب، ولم يندم. ولكنه كان مأخوذاً بوضوح الأمور وسرعتها. كان ما يزال غائصاً في

غماقة اللون، وبشاعة الجسد المنطرح على التراب. «هكذا، وفي صباح ربك، تفتتحُ نهارك بجناية! بدمٍ وموت! الله اكبر! . . .».

«نعم يا سيدي. الله اكبر! لو كنت سمعت، مثلي، صوت الميت عندما أمسك بحذائي، لكنت مُتَ معه! عدم المؤاخذة. فظيع! فظيع! كان الله في عون هذا الصغير. ماذنبه؟ ما ذنبه كي يرى ما رأى؟ انه ما يزال صغيراً يا سيدي . . .».

زنت الذبابةُ وحامت، ثم حطت على خد الصبي. كان صامتاً جامداً جاحظ العينين على الدوام. نظر الضابط اليه بيأس. فهو يرفض أن يتكلم. أن يقــول شيئـاً. أي شيء. مذهـولٌ. . مُصَّفـر. . غائبٌ عن الأشياء، والمكان، والأصوات.

« آه ، لو أستطيع إنطاق هذا الصغير. لا فائدة. لا فائدة منه ومن أبيه. أبوه. . أم جده؟؟ . .

ـ متزوج ؟

ـ أعزب يا سيدي .

ـ ومن تكون له ؟

ـ عمه يا سيدي !

ـ وأبوه ؟

ـ إستشـ. . . مات يا سيدي !

ولما لم ير إنزعاجاً في وجه الضابط، ترك للسانه أن ينزلق :

ـ أنت تعرف. لبنان. إستشـ. . . ؛ وعاد ان خوفه، أو عاوده الخوف :

ـ مع الذين حاربوا اليهود سيدي. مات معهم.

ـ تقصد استشهد معهم. قلها يا أخي! خائف؟!

رأى وجه الضابط قد إنقلب ليعكس إشارات سماحةٍ مُشجعة.

ـ نعم استشهدَ يا سيدي. وهذا يتيمه...

«لله في خلقه شؤون!.. ليست كل أصابع يدك واحدة!.. ومع هذا»: همس في داخله، وراح يرقبُ اسئلة الضابط وقد اتخذ قراره:

ـ أنا لم أرَ شيئاً!

●

دقاتُ حذائه ليست بغريبة على سمعه. وأيضاً، دقاتُ حذاء الصبي. فمع إنبلاج الشمسِ في أولى أشعتها، يكون قد شرب كوب الشاب، وتوكل على الله. «يا الله..»، يقولُ بصوتٍ مسموع، ممطوط، مكرور، ويخرجُ الى الحوش. هكذا في كل صباح. وفي كل صباح يكون الصبي واقفاً ينتظر امام باب الغرفة الأخرى. نظيف رغم ثياب العمل. مُصفف الشعر، مغسول الوجه، متورد الخدين: ليست العافية على أي حال. انه بردُ الصباح!».

ـ ها! جاهز؟...

ـ نعم.

ومن وراء الباب يخرجُ صوتها:

ـ صباح الخير يا حاج.

ـ صباح الخير. مريني.

ـ سيخبرك الصغير.

ثم، وقبل أن يُشرعا بالسير، تناهى اليه الصوت غاصاً بشيءٍ في الحلق:

ـ عادت اليه أحلامه يا حاج! أفقتُ عليه الليلة يهلّوس وينادي أباه.

الحمد لله. زالت الحُمَّى في الفجر.

ـ . . . .

ـ يا حاج !

ـ نعم ؟

كان يطلب من أبيه حاجة. . يلّحُ عليها.

ـ ما هي ؟

ـ سيخبرك عنها. مع السلامة.

ما كان بيد العم العجوز الاّ أن يلعن اليتم. يلعنه ويلعن السبب والمسبب، والزمان النذل الذي يمتطيه الأنذال. ولكن. .

نشل نفسه من عالمه الموحش، الحزين:

ـ ها؟. . ماذا تريد من أمك ؟

لم يجب الصغير إذ بدأت الخطوات تنتظم في سرعة باتجاه الشارع العريض. ثمة أصوات تصله ويسمعها جيداً. ليس متأكداً من مصدرها، ولكنها ليست بالهمس الخافت. فار الخوف في بدن الصغير. كانت الأصواتُ قد إرتفعت. صارت خطواته أبطأ. «عمي. .»، قال مختنقاً بخوفه، وتوقف. «عمي. .»!. وقف الرجل. أعطى لأذنيه أصوات المكان، فلم يسمع شيئاً. هَمَ بإخراج بسمةٍ، إلاّ ان صوت ضربةٍ مكتومةٍ أجهضها على الفور. خاف الآخرُ وبدأ يتلفتُ بجزع.

ـ من هناك؟!. . وما كانت جملته قد غادرت حلقه.

كان الصبيُ ملتصقاً به كأنه جزءٌ منه. «آخ!». . عميقة مكتومة طويلة وإرتطام جسمٍ بجسم! الحارات ضيقة. الوقت في بداية النهار. الشارع العريضُ ما يزال بعيداً عنهما.

ولا أحد في المكان!

لم يقـدرا على فعلِ شيء. جمدا كتمثالين من جَزَع. آخ أخرى أقصـر وأحَّـد.. ثم، وإذ بالـدبيب يطلعُ عليهما من زاوية على اليسار. يتعـاركـان. ويلتحمـانِ بكلِ عنف القتل وجبروت الأخذ بالنجاة!.. لا الـوجهـان واضحان، ولا الحركة ثابتة. كان الدم يرشقُ من أجزاء الكتلة المتداخلة، المتطاحنة، المرتبكة بعض الشيء. منه على الأرض قطرات. ومنه على حائط رشقة خاطفة.

ويلتمعُ نصلٌ في برودةِ السماء الصاحية؛

فلا يملكان سوى الركون الى جدار.

ويختفي النصلُ ليغوص في إضطراب الكتلة.

لم يعدّا الضربات التي سمعاها، الا أنه عند الضربة الرابعة كان أحد الجسدين يشبُّ موجوعاً وجعَ الوصولِ الى السقطة الأخيرة. كانا ينظران اليه.. وينظران. لم يصدر عنه أي صوت. أو زعقة. أو حتى صرخة. ترك لأطرافه أن تسقطَ وترتمي على تراب الصباح الندي. ولدمهِ أن يشخبَ فوّاراً فوّاراً، من الظهر والخاصرة، ثم يهدأ ليترقرق أحمر قانياً في لونِ كبد عِجلٍ نُحِرَ حديثاً!

كانت فقاعة أخيرة من الدم تنفثيء، وتنفثيء، ثم ران، فجأة، سكونُ الموت!

مضىٰ الآخر كأنما في حلم ثقيل، كابوس، وما جاء الذبابُ بعد.

●

« .. ولكن يده يا سيدي! يدُ الميت التي قبضت على حذائي. لم يكن قد مات بعد! صوته كالثور. ضعيفٌ، عميق، كأنما خارج من بئر!..

لا . لم أرَ الجاني . لا . ولم يره الصبي . أنظر اليه . كأن عفريتاً ركبه ! لا يتكلم . الا يكفيه يتمه . . يا سيدي ؟ ! . . . » .

حامت الذبابةُ حول رأس الصغير . زَنّتْ في أذنه . وهبطت إلى أسفلِ أنفهِ المبتل بالمخاط .

لم يطردها بيده .

لم يفعل إزاءها شيئاً !

●

كانا قد إبتعدا ، عن المخفر ، مسافة كبيرة ، حين تلفت الرجلُ الى الصغير . تفحصهُ وهو الى جانبهِ يصلُ رأسهُ حتى الخصر . توقف عن السير . توقف الصغير . إنحنىٰ ، وأخذ وجههُ في كفهِ الكبيرة ، فلم يجد فيه سوى عينين مفتوحتين على العالم .

سأله : ألم ترَ وجه الآخر ، حقاً ؟ . .

لم يجب الصغير .

عاد وسأله : ماذا كنت تريد من أمك ؟ . .

. . ولم يجب الصغيرُ أيضاً .

عـمّـــان
كانون ثاني ١٩٨٣

الدّمى والملائكة

ما كانت «حنان» لتدرك أن الوقت تأخر. وأنها أيضاً تأخرت. فهذا اليوم يوم آخر. زمن مختلف لا يشبه في شيء تقويمها العادي. ليست أمها هي المرأة التي تعرفها. ولا الحارة هي تلك التي تواظب على الخروج اليها.

ففي الفجر، قبل ان يستيقظ دبيب الأرجل على الأرض، أو تنزلق مغالق الدكاكين الصدئة نحو الأعلى، غادرت الأم فراشها المركون يسار الباب. تذكرُ «حنان» أن الوقت كان بعد الأذان، وتذكرُ ان هديرَ البابور، في المطبخ، طفق يتناغم. لم ترَ برميل الغسيل يُملأ وينتصب على البابور، الا انها عرفت كل تلك الخطوات عبر السمع والرائحة.

اصواتٌ تحزُ شيئاً على معدن صلب، فتقشعر منابت الشعر تحت جلدها: أمها «تنكشُ» البابور. رائحة تهجم لدقائق على المكان فتهيج غثياناً في النفس، ثم تزول: اشتعل البابور. فرقعةٌ لها صدىً قصير، ثم سقوط رتيب في فراغ: يُملأ البرميل بالماء. ثقلٌ إنهد فجأة على شيء فأصدر «طشيشاً» سريعاً، ثم تواصَلَ الهديرُ بانتظامه المعروف لدى

«حنان»: استقر البرميل على البابور أخيرا، بعد ان انزلقت منه قطرة على النار.

وأمها في المساحة الصغيرة، على الأرض العارية، تتنقل حافية.

لم توقظها. أو لم تتقصد ان توقظها كما في كل صباح. حاولت ان تنجز عملها بالهدوء الذي تستطيع. فالوقت ما زال باكراً على النهوض؛ لكنها «حنان» الصغيرة التي تنام كالملائكة. وجهها بريء كبنات الجنة، وإفاقتها سريعة كالبرق. هذا ما قالته لها جدتها يوما: (حنان. تنامين مثل ملاك الجنة. وتفيقين كالعفاريت على أي صوت!). ومنذ تلك المرة، واصلت الجدة تحكي القصة لامها حين تعتقد أن «حنان» لا تسمعها!

الّا أن الصغيرة تسمع. خاصة حين تفح الجدة كالمحمومة:

« ـ انتبهي. عليكما أن تفعلا ذلك في النهار!».

تنظر «حنان» الى زاوية الغرفة، فترى جدتها، كأشياء الدار، نائمة، ساكنة، في ضوء الفجر الشحيح. متكوّمة لا يصدر عنها سوى تنفسها الثقيل، المنتظم.

تغمض «حنان» عينيها ثانية وتعود ـ كبنات الجنة ـ للنوم من جديد. فالوقت ما زال باكراً. تحلم بدمية أخرى غير التي اعتادت الجدة على خياطتها لها. دمية تغمض عينيها عندما تنام، وتغني حين تفيق!

●

في ذاك الصباح حملت «حنان» كيسها القماشي وهرولت الى المدرسة. الكيس ذاته الذي يرافقها كلما خرجت من البيت. دفترها، وقلمها الرصاص، ونصف رغيف بالزعتر الناشف. هذا كل ما يحتويه كيس «حنان». أما في هذا اليوم الذي لا يقترب في شيء من أشياء تقويمها العادي، فإن أمراً جديداً طرأ.

اقتربت جدتها منها وقالت :

« ـ احزري ماذا سأعطيك؟»

تلهفت «حنان» لتعرف، وأرادت ان تسأل. الاّ أن جدتها لم تنتظر إذ قالت:

« ـ ما رأيك بهذه الدمية؟ لقد صنعتها خصيصاً لك بالأمس».

وأخرجت الدمية من وراء ظهرها.

كانت كغيرها من الدمى التي خاطتها لحنان. ولكنها هذه المرة دمية حمـراء كبيرة. لها عينان (زرّان) كبيرتان. ومحشوة بالقطن لا بقصاصات القماش والقش. وقبل أن تفكر «حنان» بقول أي شيء، فاجأتها الجدة:

« ـ خذيها معك الى المدرسة !»

جَنَّتْ «حنان» فرحا ولم تستطع الاّ أن تقفز هنا وهناك. تقّبل جدتها الساكنة أمامها، وتنخطف الى الخارج دافعة الدمية في الكيس. هي المرة الأولى التي يُسمَح لها بأخذ دميتها الى المدرسة. ما هذا النهار الجميل الـرائـع!.. اليوم ستعـرف رفيقـاتهـا كم هي محـظوظـة بجدة كجدتها. تحممها. تطعمها. تحكي لها الحكايات، وتصنع لها دمى جميلة. ولكن «حنان» تذكرت شيئاً ففترت سعادتها: (إن دمى جدتي تتمزق دائماً عندما ألعب بها! تظل جميلة وهي على الأرض فقط).

ومـع هذا، فإن «حنان» أبقت على فرحها. فهي تملك اليوم دمية جديدة. دمية تستطيع أن تريها لكل صديقاتها في المدرسة.

●

الحارة هي الحارة. ولكنها في هذا اليوم شيء آخر. صارت ساحة واسعة تملك «حنان» الإذن باللعب فيها وقتاً أطول. لا بل كل الوقت!

فعندما عادت «حنان» من المدرسة، وجدت جدتها تقف عند الباب. ركضت اليها وارتمت في حضنها. كانت سعيدة بالدمية إذ لم تنفرط رغم لعب صديقاتها بها أيضا. (آه كم أحبك يا جدة). قالت «حنان». تبسمت لها جدتها وأبقتها في حضنها.

« ـ اني جائعة . »

قالت «حنان». نهضت الجدة ووضعت أصابعها على رأس الصغيرة.

« ـ هاتي كيسك وخذي الدمية. سآتيكِ بالطعام الى هنا. لا تدخلي. العبي في الحارة!».

اذن، هو يوم آخر. يوم جميل امتلكت فيه «حنان» كامل حريتها. فالحارة ملعبها طوال الوقت. وهي ليست ملزمة بأن تسكن، منذ الآن، الى البيت الضيق.

وجاءتها الجدة بالطعام. أكلت «حنان» بلهفة وسرعة. فهي تريد الاسراع الى أزقة الحارة. هناك تجد الأولاد يلعبون فتشاركهم لعبهم. والبنات يقفزن فوق المربعات المرسومة بالطبشور على الأرض. اذن، ما أعظمه من يوم. وما أروعها من حارة. أما الفضل كل الفضل.. فللجدة.

●

لو كانت «حنان» تعرف أن الحارة في العتمة ليست هي الحارة، لما فرحت كما فرحت ذاك النهار.

لقد غربت الشمس، وخلت الأزقة من الأولاد والبنات. صار الجو معتماً على غير ما اعتادت «حنان». كما أن التعب أخذ منها قواها، ونال من جسمها الصغير وهي بعيدة عن زقاق بيتها في الحارة.

ارتبكت «حنان» في البداية.

ثم بدأ الخوف يغشاها: (لم تأت أمي أو الجدة لأخذي الى البيت حتى الآن! هل نسوني؟!). فأخذت تركض الى البيت وكأن شيطاناً يطاردها.

وعنـد المنعطف الأخير، قبل أن تشرف على الزقاق، تعثرت قدما «حنان» فوقعت على وجهها. تعفرت رموشها بالتراب، واصطدمت دميتها بصفيحة صدئة فتمزقت الى أشلاء من القطن والقماش.

عندها بكت «حنان»، فسالت دموعها على خديها خيوطاً من ماء عكر.

●

حين صارت «حنان» على بعد خطوات من البيت، رأت كل شيء.

إضاءة الشارع على الزقاق كالقمر. جدتها تنتحي جانب الباب وقد التصقت بالجـدار. أمهـا تتخـطى العتبة وكأنها تنفلت من يد تدفعها في الظهر! ثم شبح رجل يخرج من الباب، من ورائها، وهو يتلفت في كل الاتجاهات!

لم ترَ «حنان» وجه الرجل. لذا فهي لا تستطيع أن تتذكره إن رأته ثانية. ولكنها تتذكر كل التفاصيل، لذاك اليوم:

كيف أن أمها أفاقت باكراً ولم تصدر أصواتاً عالية ككل صباح. وكيف أشعلت البابور كي تستحم.

كيف أن جدتها أعطتها دمية جديدة ففرحت، ثم فرحت أكثر عندما سمحت لها بأخذها الى المدرسة.

وأيضاً، تذكر «حنان» متعة اللعب حتى وقت متأخر، والطعام اللذيذ،

الكثير، الذي أكلته بعجلة.

. . إذ كان طعاماً دسماً طيباً ليس كالذي تعرفه وتأكله كل يوم؟ طعام آخر.

إن «حنان» تذكر كل شيء.

أما لماذا كانت كل هذه الأشياء؟ ولماذا حدثت في ذاك اليوم؟.

ومن هو الرجل الذي خرج من بيتهم، خلف أمها، متلفتاً، في العتمة، في كل الاتجاهات. . فإن ذلك لم تعرفه «حنان»، كمعرفتها الأكيدة لأشلاء دميتها الجديدة، وقد فقدت إحدى عينيها.

دخلت «حنان» مساء يومها الطويل الحافل وفي يدها دمية ممزقة لم يبق منها سوى عين واحدة.

لقد سقط الزر الآخر في طين الزقاق حين وقعت. . فبكت.

عمّـــان
تشرين أول ١٩٨٢

كلب حَامد

جنّة مصبَاح

جنّة مصباح

في اللحظة التي هبّت فيها أولى نسائم الفجر الشتائي، استيقظ «حامد» الصغير. لو كان يملك ساعة في يده، أو يعرف عن الوقت أشياء لم يعرفها أبوه، لقال إنها ذات اللحظة اليومية. ذات الوقت في كل صباح. يشعر بدفقة حيوية مباغتة. ترمش عيناه. تنفرد ساقاه الصغيرتان تحت الغطاء الخشن. ثم فجأة، يأخذ بهرش رأسه الدافيء، إثر ساعات الليل المغلق عليها ببابٍ واطيء، متخلّع.

يترامى النباح في الخارج.

عبرَ أحجار ورشات البناء المستحمة بالمطر، وعلى طرفي الشارع غير المسفلت بعد، وداخل تربة الحقل البنية المقلوبة، وحتى الباب المتخلع، يصل النباح كأنين حيوان جريح.

« انه هو!»: يقول «حامد» الصغير ويتفلت نحو الخارج، رافساً الغطاء عنه. لا يلوي على زجر أمه المقذع.

«حامد» الصغير لا يعرف أنواع الكلاب وأصولها. هو فقط يعرف أن هذا كلب صغير، وذاك كبير. ان هذه كلبة وذاك جرو. أما عن فصائلها

وسلالاتها وفضائل أجسامها؛ فان «حامد» صغير لم يبلغ من الاطلاع حد الغوص ببواطن أمور الكلاب.

تتابع النباح في المقابل من الورشات الجديدة، فتقافز «حامد» تحت المطر، على حجارة الحقل الباردة. لم يبال بخدوش قدميه الحافيتين التي تفتحت من جديد. أخذ طريقه الى واحدة منها، دافنا ذقنه في خندق رقبته اتقاء للسعة الصباح. وحين وصلها لاهثاً، وجدها كما تركها بالأمس: بيضاء كحليب عنزات أمه الثلاث. كبيرة كالقصر الذي في الجانب الغربي من الحقل. صامتة كفجر المقبرة في اليوم الأول من العيد الأخير. وقتها بكى «حامد» وتنهنه. كان صغيرا، ولكنه بدأ يشعر أن شيئاً ما كان ليحدث لو أن السماء تدخلت! لو أن الخطأ ما وقع. ولكن، أي سماء، وأي خطأ يا «حامد» يا صغير هذا الذي تشعر به؟..

وقتها، فعل «حامد» مثل أمه واخته الكبيرة. هبط على الأرض. اتكأ أولاً على ذراعيه، ثم انبطح بكامل جسمه الصغير على كومة التراب الطويلة، وصاح: أبي! أبي!.

بكى «حامد» يومها كسيل صَخَبَ، ثم صفا في ربيع.

«لولا النسيان ما بقي إنسان!»: سمع احداهن تقول لأمه.

كانت الورشة كالمقبرة في ذلك الفجر: يصفعها الهواء الغربي من أمام، ويلفها الضباب كدخان حريق المزابل من الخلف.

وقف «حامد» الصغير قليلاً يلتقط أنفاسه.

سمع نباح الكلب، في التسوية تحت الأرض، واضحاً في صدى فراغ الورشة.

دلف راكضاً على الاسمنت الخشن الصاقع، حيث «مصباح» ينتظره

بالشاي الساخن الثقيل.

●

جميلة هي النـار التي دخـل عليها «حامد» الصغير. كالجنة ـ في حديث أمه وحديث «مصباح» ـ تستأنس بها الروح وتفرح.

أحس بها «حامد» تطقطق في أسفل البناء. تختلط وصدى النباح، فتقافز اليها هابطاً.

كان المكان معتماً إلّا من نار صغيرة في زاوية. خيالاتها الخاطفة المتخطفة تفرش حركة مجنونة على الجدران والسقف. جرو غير بعيد عنها يلوح بذيله. «مصبـاح» يقـرفص أمـامها وقد تعربشت وجهه أقنعة كوجوه الشياطين. توقف «حامد» حتى استوعب المكان والمشهد، ثم اقترب.

« ـ أهلا بحامد. تعال، فلم أشرب الشاي بعد».

قال «مصباح»، وغير من وضع جلسته، فاتخذ وجهه شكلاً جديداً، طولياً، ناشفاً، مقمطاً بكوفية تدلت نهاياتها على صدره. تماماً كما علمه «أبو حامد» كيف يضعها، هو المصري الجديد عليها. رأى انها قد تحترق حين بات ملاصقاً للنار، فأرجعها ناتراً إيّاها على كتفه. صار «حامد» الى جانبه يقطر بللاً وبقايا لهاث. أحس الدفء يسري الى بدنه ـ يده في محيط الهـواء المحترق ـ، وشعر بالراحة الطفولية تغشى روحه ـ الأخرى تحيط بعنق الجرو المندس في حضنه ـ!.

●

قال «مصباح»، لما رأى شرود الصبي، فظنَّ اليتمَ هجم عليه:

«هناك العصافير تنام في أكمام الرجال، والغيم يمطر عسلا شهدا في أفـواه الصغـار. لا تزعـل يا صاحبي، فهـو مرتاح الآن مرتاح مرتاح يراك

ويضحك. ينتظرك أن تأتي اليه ولكن بعد سنين طويلة إن شاء الله. كل واحـد له بيت كهـذا البيت. له امرأة كاللبن الفوار تدفئة في صباح كهذا الصباح. لاعفر التراب يغطي الجسد، ولا هواء الاسمنت يسكن الرئة.

«كـان يقـول لي: لنا الجنة يا «مصباح»، ويشيل الصفيح الطافح بالبـاطـون على كتفه حتى السطح الثالث. تدور بنا السماء وتستقر على الرجال النظيفين الواقفين على الأرض، فيقول: ولهم النار وبئس المصير! كان ابوك مؤمناً يا «حامد»، ولهذا ذهب الى الجنة. لا تزعل. كن مؤمنا مثله وستـرى. هنـاك الكـلاب تغني ولا تنبح. بيضاء نظيفة كملابس الرجال النظيفين، بل أنظف منها. تأكل معك وتضحك وتلعب ثم تنام مثلك. لا تحرس شيئاً إذ لا لصوص هناك. لا تنبح على أحد إذ لكل واحد بيت. لا تكشر عن أنيابها إذ كل شيء لكل الناس. لا تعض شريراً إذ كل الأشرار في النار.

« اشرب الشاي يا «حامد» قبل أن يبرد. الطقس بارد والسماء تمطر كالبحر. أرأيت البحر يا «حامد»؟ . . أنىٰ لك أن تراه. كبير ومخيف هو في الشتاء. لا تعرفه؟ أعرف أعرف، إذ لا بحر عندكم. البحر عندنا نحن، وهو طافح بالسمك. خيرات. خيرات كثيرة تشبع كل البشر، . . . ماذا؟ انها ليست لنا. للذين لهم النار. أرادوها لهم فأراد الله لهم النار. لا تزعل يا «حامد»، فهي لنا في النهاية، بل أحسن منها بكثير. عسل شهد يقطر في أفواهكم من غيم الجنة. لَبَنٌ فوار من يد امرأة كالقمر جميلة.

« لمـاذا؟ . . لأنهم كفّار وأفعالهم كفر. نعم يا «حامد» فالله أكبر. سيأتي عليهم كما أتى على قوم نوح. بحر عظيم يغرقهم ويأخذهم الى قاع الأرض حيث النار تنتظرهم. طوفان يغسل الأرض من دنسها، ونحن على

سفينة كبيرة ننجو. نعم سيكون معنا الكلب فهو الأمين. كل الأشياء ستغرق وتموت ونبقى نحن حتى بداية النظافة.

بارداً سيكون العالم ومنقعاً بالماء. بارداً كهذا الصباح مثل الموت. مثل الموت. يرتجف الجميع من برد ومن هلع . . . ».

تصطك أسنانه وينتفض صدغاه. يكون بحاجة الى شمس تظهر عليه من خلف ضباب. يكون بحاجة الى دفء يجفف عظامه الرطبة. يكون مندفعاً الى نار يضرمها، ويؤججها، فيطيل من عمر الهواء المحترق اللذيذ.

يكون الى كومة خشب قد همّ، ووضعها الى النار الكابية، فتشع عينا «حامد» الصغير الغائصتان في الحلم، وعند قدميه يتمدد الكلب.

●

لا يُنقَلُ حَجَرٌ الى مكان إلّا بإرادته. ولا يسقطُ جسمٌ من شاهقٍ إلّا حين يشاء. هكذا تم الأمر.

●

مشى «حامد» الصغير، بعد انقطاع المطر ـ البحر، يتبعه الجرو الأمين، بين السقالات المعدنية حتى وصل الأرض. ذقنه مدفونة في خندق رقبته النحيلة، وعيناه جامدتان على تلة كبيرة من حجر مقطوع لغاية البناء.

مُدَببٌ هو الحجر.

كثيرٌ هو الحجر.

أبيض جديد من المقلع جاء الحجر.

من هنا ذهب أبوه الى الجنة:

لا زالت بقع الدم في عروق الحجر باقية. ثابتة ـ يراها «حامد» ـ على الحجر جافة كالحجر ومثله لا تُمحى، أو تُنقل، الّا بإرادته.

وكانت الارادة :

فسقط الجسم من شاهق.

وكانت الارادة :

فسقط الصفيح الطافح بالباطون أيضاً.

وكانت الارادة :

فبقي الحجر في مكانه ثابتاً يتلقى الدم، والاسمنت، ويحفظهما في العينين الجامدتين «لحامد».

ولكن ؛

إنتصبَ البناءُ حجراً كالسَّدِ.

●

كان البيت قد جهـز وارتفع حتى صار كالمنارة على الحقل. رحل «مصباح» حين بدأت السيارات المحملة بالأثاث الجديد تفد. أخذ «حامد» يراقب من بعيد. يرى أنـاساً نظيفين يدخلون ويخرجون. غطيت النوافذ بستـائـر ثقيلة. حجبت الحديقة بسور مرتفع. أُنيرتْ الممرات في الليل بمصابيح خفية بين أشجار غرست حديثاً. دبت حركة وأصوات.. وصمت النباح.

«أين الجرو !».

قال «حامد» ، وهجس بمكروه أصاب صاحبه الأمين.

بيَّتَ «حامد» أمراً في نفسه يفعله في فجر يكون فيه أصحاب البيت نياما.

وفعـل .

لم يستمع الى زجر أمه المقذع وتحذيرها له من مصيبة كمصيبة أبيه

في ذلك البيت. «قروش إضافية لفلّاح أودت بحياته، فخسرها وخسر الحقل».

تقافز «حامد» على حجارة الحقل. لم يبال بخدوش قدميه الحافيتين التي تفتحت من جديد. أخـذ طريقـه الى البيت. وحين وصله وجـده كالأمس: أبيض كحليب عنـزات أمه الثلاث. كبيراً كالقصر في الجانب الغربي من الحقل. صامتاً كفجر المقبرة في اليوم الأول من عيد قديم. هذه هي فرصته. فالجميع نيام، وسيبحث عن صاحبه الأمين بكل هدوء.

لطى عند أرض السور حتى تأكد من سكون المكان. اطمأن الى عدم انتباه أحد الى وجوده. ولما تيقن من خلو الحديقة تماماً، إستجمعَ كل قواه وشجاعته، وقفز. صار متعلقا بحافة السور بينما قدماه الحافيتان في الهـواء تلامسان الحجر الأملس. هدأ قليلاً الى أن استعاد توازنه والتقط نفسه، وبدأ من جديد.

استنـد بكـامل ثقله على ركبتيه اللاصقتين بحجر السور، مستعيناً بارتكاز يديه فوق حافته، وقفز ثانية. لم يحس كيف كانت حركته، ولا كيف صار وضعه. رأى أحد الأبواب يفتح فجأة ويطل منه رجل نظيف معافى. كان يشير اليه أن يبتعد. ولكن «حامد» لم يسمع صوت الرجل.

كان «حامد» يستميت كي يتوازن فلا يقع.

كان «حامد» خائفاً حتى الموت من النباح الوحشي تحته.

كان الكلب يهاجم على قائمتيه الخلفيتين، نابحاً بشكل مخيف، بينما قائمتاه الأماميتان تخدشان السور عند قدمي «حامد».

لم يميز «حامد» إن كان جروه قد كبر، أم ان هذا كلب جديد!
سقط «حامد» دون جروه، خلف السور، فكانت الارادة.
تبقّع الحجرُ بالدم . .
وأنَّ «حامد» .

عمّـــان
كانون ثاني ١٩٨٢

صدر للمؤلف

١ ـ الصفعـة
مجموعة قصص
وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد
١٩٧٨

٢ ـ طيور عمّان تحلّق منخفضة
مجموعة قصص
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
١٩٨١

٣ ـ احدى وعشرون طلقة للنبي
مجموعة قصص
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
دار المهد للنشر والتوزيع ـ عمّان
١٩٨٢

٤ ـ موسيقيو مدينة بريمن
قصة للأطفال / ترجمة
دار ابن رشد للنشر والتوزيع ـ عمّان
١٩٨٤

طبع في شركة الشرق الأوسط للطباعة

من يحرث البحر

تتجمدُ الوجوه على إلتوائها الصارخ كأنها تمثال. تمثالٌ من حجر.. والحجر صرخة. تمثالٌ من رخام.. والرخام جزع. تمثالٌ من ملح.. والملحُ عذاب. أي «لوط» أنتِ أيتها الوجوه الثابتة على جزعها؟!. أي معصية اقترفت أجسادكِ حتى تُعاقب بصرخة الملح؟!. أي كُفرٍ عشته في وجه الرب؟!...

«ـ كان لا بد من أن أنظر للوراء حتى أرى!»

ولكن أمر السماء غير هذا. أمرُ السماء...

«ـ نعم. أعرف. ما كان مسموحاً بالنظر الى الوراء!».

.. وفعل. نظر الى الوراء، فرأى العالم سكوناً عظيماً. الحركة منفية خارج الأشياء.

●

على مسافة من الدرب الصاعد كانت هناك شرفة.

على الشرفة الحجرية كان هناك رجال.

والرجال كالرجال: ينفثون من أفواههم ضجراً عتيقاً لا يعلمون أنه ولد معهم. كالوشم. كالاسم المدوّن في شهادة الميلاد. يبغضونه، أو يستظرفونه، الاّ أنهم يعيشون فيه حتى الممات.

الرجال على الشرفة الحجرية يقتعدون كراسي عالية. ينتصبون على مقاعدها كالمنائر الوامضة في كسل. تراهم العيون ولا يلحظون مما حولهم شيئاً. موجودون وغائبون. يثرثرون عن عالم كبير تصخبُ فيه رصاصات كثيرة. والشرفة ضيقة تزدحم بهم.. أو تكاد.

دار منارات للنشر

هاتف ٦٦١٣٢٨ ص.ب ٩٢٥٠٦٢ عمان ـ الاردن

١,٠٠٠ د.أ.